



عمرو كامل عمر

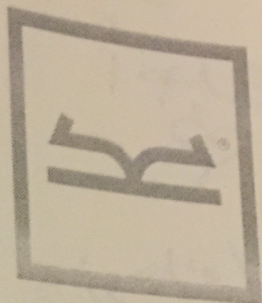
رواية

1986



ليلة تبدلت فيها الحياة

كتبتنا
KOTOBNA



١٩٨٦ ليلة تبدلت فيها الحياة : عمرو كامل عمر

طبعة منصة كتبتنا ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٧٤٨٥

ردمك: ٦-٨٤١-٦٤٥١٦-١-٩٧٨

إن منصة كتبتنا للنشر الشخصي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر
الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن آراء المنصة
والعاملين فيها.

عمرو كامل عمر

1986

ليلة تبدالتي فيها الحياة

رواية



شمال أوكرانيا، مقاطعة كييف، مدينة بريبيات، الجمعة 25 إبريل 1986، الساعة الثانية ظهرًا

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا، حينما أنهت مارجاريتا ورديتها اليومية في متجر بريوزكا Beryozka لبيع السلع الغربية من مواد غذائية ودخان وكحوليات بالعملات الأجنبية. كان هذا المتجر -الكائن بشارع دروزبي ناروديف Druzby Narodiv بالمنطقة الغربية من مدينة بريبيات- كان فرعًا ضمن سلسلة متاجر البريوزكا التي انتشرت في دول الاتحاد السوفييتي في نهاية الخمسينيات كتطبيق لرؤية الانفتاح ونبذ الستالينية والتقارب بين المعسكر الشيوعي والرأسمالي التي بدأ العمل بها بعد ويلات حروب عالمية راح ضحيتها قرابة 100 مليون نفس بشرية. دخلت مارجاريتا إلى غرفة العاملين لتغيير ملابسها، ثم انصرفت مسرعة لتأخذ ابنتها كلارا ذات الثلاثة أعوام من روضة الأطفال الكائنة بالجانب المقابل من الشارع. تراها فتشير إليها لتأتي وتجنو على ركبتيها باسطة ذراعيها إليها، فتقبل كلارا بضحكة بريئة وحضن دافئ ينسي مارجاريتا تعب اليوم، فتحملها وتسير بها شرقًا إلى متجر الخضروات والفاكهة لتشتري بعض احتياجات المنزل، ولا تنسى أن تشتري لكلارا ثمرات الفراولة

التي تعشقها. فتفرح كلارا بذلك وتطبع قبلة حانية على وجنة مارجاريتا الوردية، لتمسح مارجاريتا على شعر كلارا الكستنائي الطويل المموج وتقبل فمها الصغير، ثم تنزلها إلى الأرض وتقبض على يدها لتمضي بها شمالاً صوب بيتها الكائن بشارع سبورتيڤنايا Sportivnaya.

تنظر كلارا كعادة كل يوم جهة اليمين إلى عجلة الملاهي الدوارة بكبانها الصفراء، والتي تُمرُّ بها في طريقها إلى المنزل، فتجذب تنورة والدتها وتشير بإصبعها إلى العجلة، فتجيبها مارجاريتا بأن الأمر قد بات وشيكاً، ولم يتبقَّ سوى خمسة أيام على افتتاح حديقة الملاهي بالمدينة بشكل رسمي، وتعدّها بأنها ستحضر الافتتاح يوم عيد العمال الذي بدأت زينته تملأ شوارع المدينة وتكسوها باللون الأحمر.

تصعد مارجاريتا إلى شقتها في الطابق الثامن فتخرج المفتاح من جيبها وتفتح الباب بهدوء شديد، وتهمس في أذن ابنتها أن تدخل بهدوء هي الأخرى وأن لا تحدث ضوضاء؛ لكيلا تزعج والدها النائم في الغرفة. ثم تتوجه إلى المطبخ لتعد وجبة الهولوبتسي؛ ملفوف الكرنب الذي يحبه كثيراً زوجها فيكتور، الشاب الثلاثيني الذي يعمل في وحدة الإطفاء التابعة لمنطقة تشيرنوبل.

تخلع كلارا حذاءها وتطيح بقدميها كل فردة في اتجاه، ثم تنزل بجسدها الضئيل أسفل الأريكة لتحضر دميتها صوفياً، لتُجلسها إلى جوارها على الأريكة وتأكل باستمتاع ثمرات الفراولة التي غسلتها لها أمها بعناية. فور الانتهاء من طهي الطعام بعد ساعتين، توظف مارجاريتا فيكتور وكلارا التي تسللت للنوم بجوار أبيها، بينما انشغلت مارجاريتا بغسل الملابس المتسخة، واكتفت ببعض الدقائق تسترخي فيها على الأريكة.

يجلس الثلاثة على الطاولة لتناول الطعام. يَفرغ فيكتور من طعامه سريعاً فيقوم إلى الحمام ليتنظف ويغسل أسنانه، ثم يخرج إلى غرفة نومه ليغير ملابسه ويستعد للنزول. يقف للحظات يهدم ثيابه ويصف شعره البني القصير أمام المرآة، فيلمح مارجاريتا تقف خلفه صامتة تنظر إليه بعينين مكسورتين. فيستدير إليها ويشكرها على الطعام الشهوي، ويعدها باحتفال يليق بها في الإجازة الأسبوعية القادمة بمناسبة عيد ميلادها السابع والعشرين، فتستجيب بابتسامة هادئة ونظرة تحمل شوقاً إلى وجوده بجوارها في الليل، ولا تزيد عن ذلك لتفهمها المسؤولية الكبيرة الواقعة على كاهله كرجل إطفاء لمفاعل نووي. يعلم فيكتور ما تحمله نظراتها، فيمسح عينيها المثقلتين بالدموع كالسحاب الذي يوشك أن يطر، ويضمها إلى صدره كأنه يعتذر إليها دون تسويغ، ثم يُقبّلها ويضحك إليها بحب، ويضم ابنته كلارا ويقبّلها ثم ينصرف.

يذُكر زوجته على الباب قبل المغادرة:

- لو في إمكانك المرور غدًا على أنطون في المتجر بعد العمل، سيسلمك شيئًا خاصًا بكلارا.
- وما هو هذا الشيء... فيكتور! يا إلهي! أغلق الباب، تَبًّا لعاداتك السخيفة.



تشيرونوبل، ليلة السبت 26 إبريل، الساعة 1:23 صباحاً

تستيقظ برييات على صوت انفجار مدوّ، لا يدري أحد ما الذي حدث على وجه التحديد. الشكوك تتجه بداهةً صوب مفاعل تشيرونوبل الواقع على مقربة 15 كم من جنوب برييات. يفزع الناس من مضاجعهم فيهرعون إلى طريق لينين في برد الليل القارس ويتكدسون أعلى الجسر الجنوبي في أقصى المدينة أعلى شريط القطار ليراقبوا الحدث في ذهول. فتسحر أعينهم لوحة فنية بديعة في السماء لألسنة لهب ملونة بألوان الطيف تفوق في علوّها سحابة الجرافيت المشتعل الهائلة المشبعة بذرات المواد المشعة الفتاكة، إثر انفجار لب المفاعل رقم 4 المصنوع من الجرافيت المعالج بغرض التبريد. بسبب خطأ تقني وقع هذه الليلة أثناء إجراء تجربة صيانة في ضغط التبريد، حدث ارتفاع حاد وسريع في درجة الحرارة أخرج نظام التشغيل عن السيطرة وأودى بحياة العاملين. لم يدر هؤلاء المتكدسون المسحورون أعلى الجسر أن هذه اللوحة الجميلة في السماء ما هي إلا سيرينا غاوية ترسل ريحها الخفية لتحصد أرواحهم، بجرعات من الإشعاع النووي تزيد عن الـ 500 رونتجن؛ أي تفوق ما حملته قبلة هيروشيما بقدر 400 مرة، ليمنح التاريخ هذا الجسر لاحقاً عن جدارة لقب «جسر الموت».

يتملك الخوف من قلب مارجاريتا، لعلمها يقيناً أن زوجها فيكتور قد انتقل لمكان الحادث. لكن لصعوبة الحركة بكلارا والخوف من الخروج إلى الشارع ليلاً في هذا البرد الشديد لم تتمكن من مزاحمة الجيران على جسر الموت، والتزمت بيئتها. لم تكن تدري ماذا تفعل؛ حتى محاولة الاتصال بوحدة المطافئ للاطمئنان أو الوصول لأي معلومة لم تكن مجدية، فقد انقطعت الاتصالات عن المدينة بأكملها. جلست مارجاريتا تلتحف بالغطاء تحتضن ابنتها المذعورة وتحاول طمأنتها، وتساءل نفسها «فمن يُطمئنني وأنا على مشارف الموت من القلق؟!».

تمضي مارجاريتا ليلة مرعبة بعد وفود الأخبار بأن قوات الإطفاء تعمل بأقصى طاقتها لاحتواء الانفجار، بلا ذكر لأي تفاصيل على عادة العُنْجُويَّة السوفييتية.

لم تنهأ بلحظة نوم حتى بزوغ الصباح، انتظرت حتى تأخذ كلارا كامل راحتها وتستيقظ، فتنزل بها لتتفقد الحال في الشوارع. كانت المرة الأولى لمارجاريتا أن تتغيب عن عملها بغير إذن. لم تجد في الشوارع غير الرثرة حول وقوع انفجار في المفاعل النووي بمقاطعة تشيرنوبل. كان أطفال بريبيات يلعبون الكرة في الشوارع، وسكَّان المدينة لا يزالون يتوافدون على جسر الموت لمشاهدة ألسنة اللهب الملونة، والتي ظلت تتصاعد في السماء ناشرة سمومها حتى العاشر من شهر مايو التالي. العجلة الدوارة بحديقة الملاهي تم تشغيلها بشكل استثنائي وتوافد الناس عليها في بلاهة، وسائل الاتصال مقطوعة عن المدينة، الإذاعة الرسمية في عالم موازٍ قادة الحزب الشيوعي بدأوا فعلياً في إنقاذ أرواح ذويهم وإجلانهم عن المدينة

المنكوبة في غفلة من الناس، ومارجارتا المسكينة في حيرة من أمرها، لا تدري ماذا تفعل ولا إلى أين تتجه، تذهب إلى مركز الإطفاء بالمدينة فلا يفيدها أحد بمعلومة، إلا أن وحدات الإطفاء الخاصة بتشيرنوبل وبريبات انتقلت كلها إلى موقع الحدث، وأن الرجال يؤدون مهمتهم على أكمل وجه وأن الكل بأمان وكل شيء تحت السيطرة. ترجع مارجارتا إلى بيتها تجر خبيتها وتغلق على نفسها الباب ولا تدري كيف تتصرف.

تمضي ليلة ثانية يعيشها سكان بريريات في التيه. 36 ساعة مرت حتى الآن بغير أي بيان رسمي يخبر الناس بحقيقة الكارثة. مركبات عسكرية تملأ الشوارع والميادين، طائرات هليكوبتر تحلق في السماء، كل البيانات على وتيرة واحدة بأن الأمر تحت السيطرة، وأن كل العاملين يخضعون للاختبارات والتحليل الطبية اللازمة. الجميع يتخبط، وفي أوج عصر البحث الذري، لا يحتفظ أحد بجهاز لقياس الجرعات الإشعاعية Dosimeter ليتبين الحقيقة بنفسه.



بريبيات، ظهر الأحد 27 إبريل 1986

حصدت السموم الإشعاعية 31 قتيلاً في محيط الانفجار، فضلاً عن المصابين الذين تم نقلهم إلى مستشفيات بريبيات وكييف وموسكو، وزحف الإشعاع خلال يوم وليلة بفعل الرياح إلى مساحة تزيد عن الثلاثين كيلومتراً. ومع عجز القيادة السوفيتية عن احتواء حقيقي للكارثة المتفاقمة، والفشل في إظهار الحياة في بريبيات كأنها طبيعية، بحلول ظهيرة يوم الأحد 27 إبريل، بدأت الإذاعة في مناشدة المواطنين بالإخلاء الفوري لمنازلهم، فطلت تردد:

«انتباه أيها الرفاق الأعزاء: فإن مجلس نواب الشعب يحيطكم علماً أنه بسبب حادث في محطة تشيرنوبل للطاقة النووية في مدينة بريبيات نتج عنه تسرب إشعاعات ضارة، تم اتخاذ التدابير اللازمة من قِبَل الحزب والهيئات السوفيتية، ومن قِبَل وحدات الشرطة. ومع ذلك، ولأجل توفير السلامة الكاملة للمواطنين، خاصة الأطفال، فإنه من الضروري إخلاء المدينة مؤقتاً إلى نقاط الإخلاء في إقليم كييف. ومن أجل القيام بذلك، بدءاً من اليوم، 27 إبريل، الساعة الثانية ظهراً، سيتم توفير حافلات، يرافقها ضباط الجيش وممثلو لجنة الحزب في المدينة لإخلاء البيوت.

يرجى أخذ بطاقات الهوية، وأخذ الضروريات فقط، والمواد الغذائية على قدر يوم واحد.

من جانبهم سيقوم مديرو المشاريع والمؤسسات بتوفير العمالة اللازمة لضمان سير العمل في المدينة بشكل طبيعي. جميع الشقق ستكون تحت حراسة ضباط الجيش أثناء عملية الإخلاء.

أيها الرفاق، يرجى ترك النوافذ مفتوحة، وغلق جميع الأجهزة الكهربائية والغاز وصنابير المياه.

يرجى الحفاظ على الهدوء والنظام خلال هذا الإخلاء المؤقت».

دفعت الحكومة الأوكرانية بـ 1100 حافلة جلبتهم من محطات كييف، مما أحدث أزمة كبيرة في النقل والمواصلات العامة في العاصمة. كل ذلك بغرض إجلاء سكان بريبيات وإيوائهم في مناطق مجاورة. كل شيء قد تبدل في لحظة! فذهبت السكرّة، وحلّت مكانها الحسرة وفقدان الأمل.

أسقط في يد مارجاريتا فور استماعها للبيان، لم تدري ماذا تفعل وكيف تتصرف؛ ماذا تأخذ وماذا تترك، أين زوجها وما هو مصيره وهل ستلقاه مرة أخرى أم لا... لم تدبر شيئاً من أمرها، ولم تأخذ من المتاع سوى حقيبة صغيرة بها جزء من ملابسها وملابس ابنتها وزوجها، والنقود والمشغولات الذهبية، وبرواز به صورة تجمع بينها وبين فيكتور، مع بعض الطعام لكلا في حقيبة ورقية. ثم أخذت ورقة بيضاء وكتبت عليها بعض الكلمات بخط عريض وألصقتها على باب المنزل من الخارج.

كانت كلارا تجلس على الأرض في الصالة تلعب بدميتها صوفياً، فحملتها

مارجاريتا وجذبت منها دميته وأطاحت بها على الأريكة وسط صراخ لم تستطع التعاطف معه.

صعدت مارجاريتا سلمات الأتوبيس بخطوات مثقلة بالحسرة وتأنيب الضمير، بين ناري التحقق من مصير زوجها، ومن إنقاذ ابنتها من وحش الإشعاع الخفي المحيط بها من كل جانب. تسألها كلارا سؤال قلق عن أبيها، ولا تستطيع مارجاريتا الرد غير أنه في العمل وقد يلحق بهما لاحقاً. استجاب الجميع للبيان، ورحلوا على أمل العودة في أقرب وقت، رافضين تصديق صوتهم الداخلي بأنها النظرة الأخيرة فليُمعنوا فيها.

بريبيات هي إحدى تسع مدن كبيرة مغلقة تم إنشاؤها في الاتحاد السوفييتي لخدمة مشروع تشيرنوبل النووي الضخم والعاملين به. شيدت بين عامي 1970-1979، وكانت مدينة متكاملة تضم كل وسائل العيش والرفاهية المطلوبة من سكن ومدارس وترفيه ورياضة ومستشفيات وروضات وكل شيء. ووصل تعدادها السكاني إلى 49.000 نسمة.

من بين 350.000 مواطن سوفييتي أُجبر على الرحيل، كان سكان بريبيات أوفر حظاً من غيرهم؛ حيث صدر قرار بإسكانهم لاحقاً في مدينة سلافوتيتش التي بدأت أعمال البناء فيها بعد ستة أشهر من وقوع الكارثة (أكتوبر 1986) وتم الانتهاء منها في أكتوبر 1988. أما سكان تشيرنوبل وبلاروسيا العاملين في الحقول الزراعية الريفين البسطاء؛ فقد أُجبروا على النزح وإخلاء بيوتهم بلا ملجأ ولا مأوى، حتى إن بعضهم لم يجد إلا البقاء والتعايش والمعاناة في صمت والاستسلام للمصير المجهول،

رغم وعود الحكومة الأوكرانية بتوفير حياة كريمة لهم وطعام نظيف، إلا أن ما كانوا يجودون به عليهم لم يكن ليكفي كسرة خبز.

يُقل الأتوبيس مارجاريتا إلى إحدى قرى كييف الفقيرة، مع تسليمها مبلغ 200 روبل، وتوصيات من رجال الشرطة للجميع بالتراحم والتآخي والعيش في سلام، ووعود بعودة الأوضاع إلى ما كانت عليه خلال أيام.

سألت مارجاريتا رجال الشرطة قبل المغادرة عن مصير زوجها، فأخبروها متلطفين بأن الأخبار توافدت إليهم بمقتل 31 شخصاً من العاملين في الموقع ومن رجال الإطفاء، لكن لا يمكنهم الآن التحقق من الأسماء، ووعدها بأن يخبروها خلال أيام، وأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

لم يمضِ يومان حتى وصل مارجاريتا خبر وفاة زوجها فيكتور، وأن جثث رجال الإطفاء -الذين واجهوا السموم المشعة والحريق بشجاعة وبغير أي احتياطات ملائمة- قد انتقلت إلى مقبرة ميتينسكو Mitinskoe بموسكو في تابوت من الزنك محكم الإغلاق، وأنهم قد تم تكريمهم ومنحهم لقب بطل الاتحاد السوفييتي.

كان التعتيم المريب الذي خيم على الحادث قد هبأها لتقبل الخبر بصمت وبغير انفعال، لتجلس بعد ذلك في غرفتها تبكي بكاءً مريراً وتشعر بأن ظهرها قد قُصمَ بغير أمل في الشفاء، وأن حياتها قد تجمدت واكتست بجليد أوكرانيا.

تمضي الأيام ووعود السوفييت بالعودة القريبة تزداد فتوراً وتراخياً، حتى صار التلميح إلى إمكان بقاء الوضع إلى ما بعد الشتاء القادم، حيث

إن بربيات هي أخطر المدن وأشدّها تأثراً بالإشعاع. حتى تبين للجميع بمضي السنوات أنه لا يمكن العيش في بربيات قبل عام 2036.

كان التستر على الحادث أقبح من الأسباب التي أدت له؛ ففي الوقت الذي ظلت فيه الجهات الرسمية ممتنعة عن الاعتراف بوقوع كارثة بيئية هي الأكبر من نوعها، كسرت الجهات السويدية المعنية هذا التعتم؛ حيث رصدت أجهزة استشعاراتها ارتفاعاً ملحوظاً في النشاط الإشعاعي واجهت به الحكومة السوفييتية التي بدورها ظلت ترفض الاعتراف به. حتى أبلغتها الحكومة السويدية في نهاية المطاف بأن تقريراً تم إعداده للهيئة الدولية للطاقة الذرية سيتم إرساله. فهنا فقط أذاعت الحكومة السوفييتية في الساعة التاسعة من مساء يوم الإثنين 28 إبريل في البرنامج الإخباري التلفزيوني على قناة فريميا Vremya بياناً مقتضباً لم يتجاوز العشرين ثانية، جاء فيه:

«تعرضت محطة تشيرنوبل للطاقة النووية لحادث أدى إلى تضرر أحد مفاعلاتها. جار الآن إصلاح آثار الحادث وتقديم المساعدة لكل المصابين. وتم تكوين لجنة للتحقيق».

ثم سخّرت الصحف النظامية للتمجيد في بطولات رجال الإطفاء البواسل والعاملين بالمفاعل، وصب جام الغضب على الدعاية والبروباجاندا الأمريكية المغرضة التي أحدثت سحابة مسمومة معادية للسوفييت، للتغطية على جرائمها وجرائم حلف الناتو ضد الأمن والسلام.

أصيب الأوكرانيون بالذعر مع تطاير الأخبار وتناقل الصحف، وزاد الإقبال على تناول الفودكا بشراهة؛ حيث راجت الإشاعات بأن الفودكا تقوي من أخطار الإشعاع. وفي المقابل حذرت بعض الصحف من هذه

الخرافات، ونصحت المواطنين بتناول الشاي والكرنب المطهو في الزيت
النباتي والبطاطس والخضروات الطازجة للحد من هذا الخطر.

كانت مارجاريتا أوفر حظًا من العديد من سكان 13.414 شقة بـ 160
مبنى في برييات تم إجلاؤهم في يومين؛ حيث كان لها أخ أكبر يعيش مع
زوجته وابنيهما في موسكو. فلما أخذت قرارها بالرحيل بعد المكث خمسة
أيام في المخيم غير الآدمي والسفر إليه، وصلت إلى كييف واتصلت به
وطمأنته عليها وعلى كلارا وأخبرته بوفاة فيكتور فاغتم وحزن لذلك كثيرًا،
ووجدت منه إصرارًا وترحابًا شديدًا على انتقالها وكلارا للعيش معه، وأن
هناك غرفة مريحة جاهزة لاستقبالهما، واتفقا على موعد ينتظرها فيه.
خضعت مارجاريتا وكلارا ككل الوافدين إلى موسكو من منطقة الإشعاع
المحظورة لاختبارات دقيقة ونظام تنظيم جاف مخصوص للملابس الملوثة.
كان ألبرت البالغ من العمر 38 عامًا في انتظارهما على شريط القطار،
فاستقبلهما بعناق طويل، ثم حمل عن أخته أمتعته واستقلوا سيارة خاصة
إلى بيته المتواضع في شارع أوليتسا أودارنيك Ulitsa Udarnik، حيث كانت
زوجته أولجا في انتظارهم هي وابنها جوزيف البالغ من العمر 7 سنوات.
أخذت مارجاريتا وكلارا حمامًا دافئًا طال الاشتياق إليه، وارتديا ملابس
جديدة قد اشتريتها لهما أولجا فور علمها بمجيئهما، وتناولوا جميعًا عشاءً
دسمًا خلدت بعده مارجاريتا وكلارا إلى نوم عميق.
في صباح اليوم التالي ذهبت مارجاريتا لزيارة مقبرة ميتينسكو ومكثت
هناك ساعة، ثم عادت إلى منزل أخيها تعيش ذكراها وواقعها الأليم.

تمضي الأيام واحدًا تلو الآخر يشابه بعضها بعضًا، ومارجارتا تعيش في ضيافة ألبرت وأولجا الطيبة. مرور ثلاثة أسابيع، بدت حاجة مارجارتا مُلحةً إلى المُضي قدمًا واستئناف الحياة ومواجهتها بقوة وصلابة، وتخفيف أعباء المعيشة من على كاهل أخيها ألبرت الموظف البسيط وأسرته.

كانت مارجارتا قبل عملها في بريوزكا بريبات تعمل صحفية ورسامة كاريكاتير ناشئة في جريدة بيريتس Perets، الأوكرانية الصادرة في كييف، وذلك قبل الارتباط بفيكتور والانتقال للعيش معه في بريبات. فتقدمت للعمل في مجلة كروكوديل Krokodil الروسية بمقرها في موسكو وتم قبولها براتب مقبول. برعت مارجارتا في الرسوم الساخرة اللاذعة المنتقدة للإمبريالية الأمريكية وللأفكار البرجوازية ولفساد بعض الكبار والمنتفعين السوفييت، مستغلة ارتفاع سقف الحريات جرأً سياسة الانفتاح والشفافية «جلاسنوست» Glasnost، وإعادة الهيكلة والإصلاحات الاقتصادية «بيرسترويكا» Perestroika التي استهل بها ميخائيل جورباتشوف عهده، آخر عهود السوفييت، والتي أحدثت انفراجة في الإعلام أتاحت له كشف عوار السوفييت للشعب، وابتعاث قوميات الدول المتحدة. كان حادث تشيرنوبل أحد غنائم هذه السياسة الإصلاحية، والتي أدت لاحقًا إلى إسدال الستار على الحقبة السوفييتية وإعلان إنهاء الحرب الباردة مع الأمريكان، والتي لم تنته في الحقيقة، وإن تطورت وسائلها.

كان قلب مارجارتا يُوججه نار تفوق نيران تشيرنوبل في لهيبها ولا تجد ما يطفئها؛ أن يتحمل زوجها عاقبة اختبار أمان فاشل غير محسوب. ظلت تسعى بكل وسيلة مشروعة لأن تندد بالحادث وتحيي ذكراه، وإلى جوار نشاطها الصحفي انضمت للحركة المناهضة للأسلحة النووية وشاركت في فعالياتهما، بل أصبحت أحد كوادرها البارزين.

هذه الحالة المربكة من العيش لم تعد مع الوقت مريحة لأخيها الذي بدأ يضيق صدره من جرأتها وطيشها، فهو طالما عاش حياته العائلية في هدوء وحذر، محاولاً الهرب وتناسي ذكريات طفولته القاسية؛ بدءاً بشظف العيش، مروراً بقرارات 1959 التي اتخذها نيكيثا خروتشوف لمواجهة مظاهر التدين في البلاد؛ فأغلق الكنائس ورؤض وصفى واعتقل الكثير من رجال الدين، والمواطنين الذين وصل إلى أسماع الـ KGB مُط حياتهم المحافظ وارتياحاً لأنهم للكنائس للتعلم والخدمة. كان من ضمن من شملتهم الاعتقالات والد ألبرت، ديميتري؛ الفلاح البسيط العامل بالسكة الحديد. لا ينسى ألبرت هذه الأيام حالكة السواد؛ كان يبلغ من العمر حينها 11 عاماً. يتذكر جيداً يوم اقتادوا والده من المنزل وكانوا بصحبة جاره ماكسيم. لا ينسى ابتسامة ماكسيم ونظرة التشفي في والده، ولا يدري حتى اليوم ما السبب وراء ذلك. كانت مارتا والدة ألبرت في شهورها الأخيرة من حمل أخته الصغرى مارجاريتا، والتي وضعتها في بيتها الريفي في غياب زوجها الذي مكث في سجنه ثلاث سنين. ولما خرج استقبلته زوجته مارجاريتا، ولم تتم عليه فرحته لإخباره بوفاة ابنته الوسطى فيودورا منذ عام بسبب الحمى.

مع ازدياد صيت مارجاريتا وتردد اسمها، يتجدد ألم ألبرت من هذه الجروح الزمنية الغائرة، فينصحها تارة وأخرى بإيثار السلامة، وهي ترفض؛ فنار الغضب لفيكتور لم تهدأ بعد. نشبت بينهما مشادة كبيرة في ليلة كان فيها ثملاً وقد بلغ حنقه الأنف، وحينما احتدم الكلام بينهما قام بسبها وصفعها على وجهها أمام كلارا حتى قطر الدم من فمها، ثم طردها وأمهلها يومين لتغادر المنزل. رغم توسلات زوجته أولجا وصريخ كلارا أصر على مقاطعتها نهائياً، فحزمت مارجاريتا متاعها المحدود وغادرت

هي وابنتها، وكانت تَدخِر بعض المال فدفعته مقدماً لشقة صغيرة غرفة وصالة في شارع كومسومولسكايا بيرولوك Komsomolskiy Pereulok، ومن يومها استقلت بحياتها تماماً.

واجهت مارجاريتا قسوة العيش بمفردها؛ لم ترغب في الزواج، ولم تحب أو يتعلق قلبها بأحد غير فيكتور. شغلت نفسها بعملها وبالنشاط الاجتماعي والخيري، بدأت تشعر مع الوقت بتغيرات تسري في جسدها؛ فقد بدأ يخف شعرها ويتساقط، وصارت أكثر بدانة، ضعيفة القدرة على تحمّل البرد. أصبحت دائماً متعبة، قليلة التركيز، فاقدة للشهية، دائمة الشكوى من تقلصات المعدة وعسر الهضم. أصبح النهجان لا يفارقها، وتغيرت نبرة صوتها للأخشن. علمت من تردها على الأطباء أنها ليست الوحيدة التي تشتكي من هذه الأعراض. وبعد الكشف والفحوصات تبين لها أن الغدة الدرقية أصابها القصور بسبب اليود المشع الذي تعرضت له في بريبيات قبل المغادرة. إلا أن الأطباء طمأنوها بأن حالتها حميدة على عكس آخرين تعرضوا بنسبة أكبر للإشعاع، وأصيبوا بسرطان الغدة. استسلمت لقضاء الله، وشكرته أنها لم تتجه ليلتها صوب جسر الموت الذي فتك بزائريه. لكن تملّكها الرعب على صحة ابنتها ومستقبلها من هذا الوحش الخفي، والذي يبدو أنه لم يتعرض لها بسوء حتى اللحظة. مضى العام تلو الآخر، وشى بها أحد الفاسدين المنتفعين الكبار الذين لم يسلموا من قلمها السليط، لكن يبدو أن الموجة هذه المرة علت كثيراً وطالت الخطوط الحمراء. وصلتها التهديدات المبطنة بأن العرفان بدور زوجها البطولي لن يُعفيها من الاتهام بمعادة الوطن. ماذا في وسعها

تفعل وهي الآن وحيدة شريفة؟ ارتدعت وعدلت تمامًا عن توجهاتها إلى
تغطية قضايا الفن والثقافة، ورسم قصص الأطفال.

خافت على ابنتها وأغلقت عليها منافذ الحياة إلا قليلاً؛ بثت في قلبها
الخوف من كل غريب، شغلته رياضة الجمباز واللياقة البدنية مستغلة
نحالة جسدها. تفوقت كلارا في ذلك وحصدت الميداليات والبطولات المحلية.
في يوم من أيام عامها السابع لاحظت مارجاريتها انطواءها وعزلتها
وخوفها من شيء ما، سألتها فلم تجب، أعطتها الأمان وضمتهما إلى صدرها
فانهارت في البكاء، أخبرتها بأن أحد المدربين ظل فترة من الوقت يضع يده
وقت التمرين على مواضع حساسة بطريقة مؤلمة ومسببة للقتل. ثم
أشارت لأمها على هذه المواضع، وقالت لها إنه في آخر مرة بعد التمرين
أخذ بيدها إلى غرفته وأغلق عليهما الباب، ثم عرض عليها صورة كان
يحتفظ بها في حقيبته أصابتهما بالغثيان والقرف الشديد، وطلب منها أن
تفعل له مثلها، وهددها إن لم تفعل سيتعرض لأمها بالضرر البالغ، وهي
لا تدري لماذا!!

عندما سألتها عن اسمه عرفت أنه أخو الواشي القذر الذي أرسله
لها منذ عامين رجل الأعمال الفاسد بتهديده المبطن فطرده. انفطر قلبها
من الحزن والألم لأنها عاجزة عن المواجهة والرد. طمأنت ابنتها ووعظتها
بالحفاظ على نفسها والحذر من ذئاب الإنس. وفي سبيل ذلك ألحقتها
برياضة الجودو لبث الثقة فيها وفي إمكانها الدفاع عن نفسها. تفوقت
فيها وبرعت، وزادت شخصيتها قوة وصلابة، وصارت عكازاً تستند عليه
أمها مع تقدم العمر وضعف القوة.

موسكو، الاثنين 29 أغسطس 2005

اليوم تتم كلارا عامها الثاني والعشرين، وقد أصبحت جميلة يافعة الشباب مفعمة بالحيوية والنشاط، لها من اسمها أوفى نصيب؛ فهي كلارا الصافية الذكية اللامعة. لها طموحاتها وأحلامها المختلفة عن جيل والديها. مُت وتشكلت في ظروف مركبة؛ بين تيار شيوعي يفقد هيمنته ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وجذور أرثوذكسية محافظة بدأت تستعيد عافيتها وتخرج من الخفاء للعلن، وعملة وانفتاح ثقافي غير مسبوق. أمّت كلارا دراستها العام السابق في كلية التربية البدنية، وأعدت دبلومة متخصصة في رياضة الجودو. تُمضي الساعات الطوال على الإنترنت، تتعرف إلى الشباب والفتيات من الشرق والغرب عبر مواقع التواصل والمنديات، تطلع على خبايا العالم بلا حدود أو قيود، لها حياتها الخاصة وأسرارها، يدفعها الفضول أحيانًا للاطلاع ما قد يعرضها للخطر أو يخدش لها الحياء. تخاف أمها عليها خوفًا مبالغًا فيه، حتى إن العلاقة بينهما شابتها بعض الشوائب وتكدر صفوها القديم. تتصاعد وتيرة الحدة والغضب والشجار والكلام بما لا يليق، صراع أجيال حاد ومحتدم في بيئة اختلطت فيها الأفكار بشكل عجيب تُفرد له أبحاث علوم السياسة والاجتماع وتُعقد له المحاضرات وتُخط فيه الكتب.

تسعى مارجاريتا للمحافظة على العقد الذي رأت أنه على وشك الانفراط في مجتمع مادي منحل لا يرحم إلا القوي. لم تجد بعد من تستأمنه على ابنتها كزوج، وطالما وقفت أمام رغبتها في مصادقة أحد شباب الجامعة الذي رأت في سلوكه الرعونة والمجون والرغبة في التسلية لا أكثر.

قررت هذا العام أخذ خطوة مختلفة لرأب الصدع واستعادة صداقتها واحتوائها لكلارا؛ فبعد مشاجرة كبيرة بسبب صورة شبه عارية أرسلها هذا الشاب على الإيميل انتبهت لها مارجاريتا وقت دخولها على كلارا فجأة، أتبعها خصام وهجر دام خمسة أيام رغم اعتذار كلارا لها يوميًا وتوضيح أنها فوجئت بالصورة تمامًا كما فوجئت بها أمها. قررت مارجاريتا في النهاية أن تلين إلى ابنتها وأن تفاجئها هذا العام في يوم ميلادها مفاجأة مختلفة. تركت لها على سريرها ظرفًا مبهيًا بألوان وعبارات حب، لتفتحه وتجد بداخله تذكريّ طيران وحجرًا بأحد فنادق شرم الشيخ، المدينة المصرية الساحرة.

طارت كلارا فرحًا بالهدية ودخلت على أمها توقظها من نومها وترقي في حضنها وتغمرها بالقبلات، وتكرر الاعتذار وتجدد العهد معها. سعدت مارجاريتا لذلك وشعرت بأنها خطوة ناجحة على الطريق.

لم يكن يتبقى من الوقت سوى ثلاثة أيام، ولم يحتج الأمر إلى كثير إعداد للحقائب والأمتعة، فكانت الرحلة سهلة، برعاية إحدى شركات السياحة التي أعدت برنامجًا سياحيًا ترفيهيًا لمدة 10 أيام لمدينتي شرم الشيخ ودهب.

جنوب سيناء، شرم الشيخ، الخميس 8 سبتمبر 2005

كان منتجًا سياحيًا كبيرًا في خليج نعمة الخلاب، عند ملتقى القارة الإفريقية والآسيوية. يمضيان فيه الصباح الباكر على المسبح، وبعد انكسار الشمس على شاطئ البحر ورماله الذهبية الدافئة، مع ممارسة الرياضات المائية والرحلات البحرية بين الشعاب المرجانية النادرة، أو الرحلات الصحراوية والجلسات البدوية بين شعاب الجبال.

في هذا اليوم توجهت كلارا إلى أحد العاملين بالشاطئ لتستعلم منه عن الرحلة البحرية التي ينظمها المنتجع، فأرشدتها إلى مكتب الحجز، فتوجهت إليه وحجزت مقعدين لها ولأمها في رحلة المركب الزجاجي التي ستنتقل في الثالثة والنصف عصرًا، ثم عادت للاستحمام على الشيزلونج بجوار والدتها الغارقة في النوم.

كانت كلارا تدفع الملل بالاستماع إلى قائمة أغانيها المفضلة على جهاز ال MP3 Player الخاص بها، تأملت المكان حولها فلمحت على مرمى البصر مجموعة تلعب الكرة الطائرة، فذهبت لتستأذنهم في المشاركة فرحبوا بها وضموها إلى أحد الفريقين، واقتروا على أحد الجالسين الانضمام إلى الفريق الآخر ليستوي العدد. كانت كلارا تجيد اللعبة وتتحرك برشاقة في إطار الملعب وتسدد رميها باحتراف.

كانت المباراة تسير بشكل طبيعي حتى اللحظة التي تصادف فيها اشتراك كلارا في صد الكرة مع لاعب آخر من نفس الفريق، والذي بغير قصد منه دفعها بذراعه من جهة الصدر، فكأن عقرباً ساماً لدغتها، وتلقائياً صفعته على وجهه ثم طرحته أرضاً وسبته بصوت غليظ بكلام لم يفهم معناه، وسط ذهول وصمت من الجميع.

تلعثم تميم من هول الصدمة وظل يردد بالإنجليزية:

- أنا لم أقصد، أنا لم أقصد، أنا آسف، أنا آسف، أقسم بالله أنا لم أقصد!

كانت كلارا قد احتقن وجهها واحمر كقطعة الجمر الملتهبة وظلت تتلفظ بكلام غير مفهوم. تدخل أحد العاملين بالشاطئ يعمل في حجز معدات الغوص، كان يتابع الموقف منذ بدايته ويجيد التحدث بالروسية، فأقى مسرعاً لاحتواء وتهديئة الموقف، فاعتذر كثيراً لكلارا وقال لها بأدب بأن الشاب لم يتعمد ما بدر منه بالفعل، وأن الالتحام على الكرة كان السبب في ذلك. لم تجد كلارا ما تجيب به على الرجل المهذب، فأدارت له ظهرها وعادت إلى المظلة التي كانت تنام مارجاريتا تحتها وجلست وضمت جسدها وهي ترتعش.

استيقظت أمها ودُعرت لرؤيتها على هذا الحال:

- ماذا بك يا كلارا؟

- وقح دفع صدري بذراعه وأنا ألعب الكرة الطائرة!

- أين هو هذا المجرم! وأين أمن المكان؟

- انتهى الأمر يا أمي، لا عليك، اعتذر مراراً وقال إنه لم يقصد، بل كاد يبكي

من الخجل، وأنا أظنه صادقاً رغم أنني صفعته على وجهه وطرحته أرضاً.

- حيوان! لن تتأدب أبداً. سأصعد إلى الغرفة لأنام، رجاء عندما تعودان ادخلا في هدوء واتركا الأضواء خافتة كما هي ولا داعي للشجارات اليومية حول من يستخدم الحمام أولاً، لا يوقظني أحد قبل موعد العشاء في المطعم، ولا تمتد يد أحد إلى قطعة الشوكولاتة الخاصة بي في الثلاثة.

تميم وسليمان وماجد جمعت بينهم صداقة قديمة تعود إلى أيام المدرسة، وكان الثلاثة هم الأكثر انسجاماً معاً، وكثيراً ما يتسبب ذلك في بعض الحساسيات مع باقي المجموعة خاصة وقت الرحلات والسفر. تخرج تميم من كلية الحاسبات والمعلومات، وتخرج سليمان من كلية الإعلام قسم الصحافة، وتخرج ماجد من كلية الهندسة القسم المدني. هذا الصيف اتفقوا على السفر إلى شرم الشيخ للمرة الأولى بدلاً من الساحل الشمالي، لما سمعوه كثيراً من أصدقائهم وأقربائهم عن سحرها وجمالها رغم شدة حرارة جوها. كانت أسعار المنتجع مرتفعة، فتشاركوا في غرفة ثلاثية تطل على المسبح بدلاً من البحر، وفضلوا الذهاب براً عن طريق الأتوبيس رغم مشقته لتوفير المبلغ الذي كان بحوزتهم وتحقيق أكبر استفادة منه. في الثامنة من هذه الليلة أيقظ ماجد وسليمان تيمماً لتناول العشاء في بوفيه المطعم المفتوح، ثم نزلا وتركاه؛ لكيلا يؤخرهما. لم يكن الثلاثة مستمتعين كثيراً بما يقدمه المطعم من أصناف، لكن في المقابل المطاعم في خليج نعمة كانت أيضاً تُبالغ في أسعارها، ولذلك فبوفيه المطعم كان أفضل الاختيارات.

قفز تميم في ملابسه مسرعاً بعد ربع الساعة خوفاً من أن يلحق ببقايا البوفيه كما حدث ليلة أمس. دخل إلى المطعم، وأخذ نفساً عميقاً:

- يبدو أن الطعام اليوم شهياً.

كانت خريطة المطعم قد انطبعت في ذاكرته منذ اليوم الأول، فلم يضيع وقتاً؛ جذب طبقاً كبيراً من المنضدة جهة اليمين، ثم توجه مباشرة إلى قسم المأكولات الرئيسية، رمقه بنظره من أوله لآخره، فأخذ قطعتين من اللحم بصوص الفلفل الأسود، وقطعة من صدور الدجاج بالصوص الأبيض والمشروم، وملعقتين كبيرتين من الأرز الأبيض، ثم انتقل إلى ركن السلطات ليزاحم اللحوم ببعض الخضروات المسلوقة، وقدراً من سلطة البطاطس وسلطة الكرنب بالمايونيز، وبعض شرائح الخيار وحببات الزيتون الأسود. ثم أخذ قطعة خبز قد يحتاج إليها بعد حين.

بحث عن صديقيه فلم يجدهما بداخل القاعة، لكن وجدهما بالخارج يتناولان العشاء على طاولة بالمسبح الملاصق للقاعة، وقد بدأ على ضفته الحفل اليومي الصاخب السخيف.

- لماذا تجلسان في هذا المكان المعتم الصاخب؟

- لا ندري، قلنا من باب التغيير، لكن معك حق الحفل سخيف حقاً، ورطوبة الجو مرتفعة جداً، كان اختياراً غير موفق، لنكمل الطعام ثم ندخل لتناول الشاي مع الحلوى في الداخل.

انتهى الثلاثة من الطعام ولكن فضّل ماجد التحلية بالراقصة اللولبية التي رجّت المكان بهزّاتها وحركاتها الأفعوانية على نغمات بعض الأغاني الشعبية، في حين انشغل سليمان بتسليك أسنانه بالخلة غير مبالٍ بالرقص والنغمات الشرقية التي لا تستهويه. دخل تميم إلى المطعم لإمداد الجزء المتبقي من معدته باللازم، فهذه رغم نحافته كانت متعته الحقيقية.

أخذ هذه المرة طبقاً صغيراً من المنضدة في الجهة المقابلة، وتوجه

إلى ركن الحلوى، لم تكن بنفس القدر من الجاذبية هذه الليلة، التقط بعض المخبوزات ليتناولها مع الشاي. ثم بدا له أن يبدأ بقدر من سلطة الفاكهة التي أغرتة بألوانها وشرابها الحلو، فأخذ طبقًا عميقًا وغرف منها غرفتين.

هوت الملعقة الصغيرة من طبقه، فبهدوء أخذ خطوة إلى الخلف ليتلقطها من الأرض، فوجد مؤخرته تصطم بأحد من خلفه، فنصب قامته والتفت سريعًا فوجدها فتاة نحيلة تقف بظهرها تأخذ بعض ثمرات الفاكهة من المنضدة المقابلة. فلما استدارت وتلاقت أنظارهما انتفض تميم وشحب وجهه، كأنه رأى عفريتًا، لكنه في الحقيقة رأى كلارا.

تلقائيًا رفع ذراعه إلى وجهه ليحتمي من الصفحة المرتقبة، خاصة وأنه قد لمح الحدة والغضب في عينيها. قبضت كلارا يدها وهمت بالتسديد مرة أخرى عندما وجدته الشخص نفسه، لكنها سرعان ما عادت إلى رشدها هذه المرة وأشفقت عليه عندما رآته خائفًا هكذا، فأخذت شهيقًا عميقًا وأتبعته بزفير في محاولة لتنفيس غضبها، ثم أرخت قبضتها وأشاحت له بيدها ثم استدارت، ليتلقط هو أنفاسه ويحمد الله على السلامة.

استجمع تميم شجاعته لأن يكرر الاعتذار إليها عما بدر منه في الصباح وفي هذه اللحظة بغير قصد منه في كلا الموقفين، فسكتت كلارا قليلًا ثم أجابته بالإنجليزية بأنها أيضًا تعتذر عن تصرفها العنيف الذي صدر منها لظنها أنه كان يقصد التحرش بها. فشكرها لذلك، ثم افترقا.

وضع تميم الطبقين ومفتاح الغرفة على طاولة خالية في داخل المطعم المزدهم، ثم خرج إلى صاحبيه ليخبرهما بأنه ينتظر في الداخل، ثم عاد ليُعد فنجان شاي، وجلس يفكر وقلبه يخفق اضطرابًا لما حدث.

عاد سليمان وماجد أحدهما بالنسكافيه والآخر بالشاي مع بعض
المخبوزات، فظلوا يتسامرون حتى استأذنهم النادل على استحياء في
المغادرة لانهاء وقت العشاء بالمطعم، فقال لهما تميم:
- هيا قوما يا عديمي الإحساس، فلم يعد هناك غيرنا بالمكان.

في عصر اليوم التالي كان تميم وصديقه على موعد مع رحلة جبلية
بسيارات الشاطئ. كانت الحافلة الصغيرة في انتظارهم أمام بوابة المنتجع
برفقة بعض نزلاء المنتجعات الأخرى. لما صعدوا إلى السيارة فوجئوا بكلا را
تجلس إلى جوار والدتها في الكرسي خلف السائق، ولم يتبقَّ إلا مكان
ثالث بجوارهما من ناحية الباب، ومكانان خلفهما قد قفز إليهما ماجد
وسليمان، تاركان تيممًا يواجه مصيره المحتوم في الكرسي الأمامي، فنظر
إليهما ولم يعلق، وازداد غضبه عندما وجدهما يكتمان الضحك.

جلس تميم وقال لكلا را وأمها بالإنجليزية بصوت مرتعد:

- مساء الخير، عذرًا فلم أجد مكانًا آخر لأجلس فيه.

ضحكت مارجاريتا وأشفت عليه من العقدة التي سببتها له كلا را،
وأجابته بالإنجليزية:

- بالطبع، لا توجد أي مشكلة، لا تقلق.

ضحكت كلا را من جواب أمها، فضحك تيمم كذلك، وشعر وكأن جبل
جليدٍ ضخماً قد ذاب في شمس الصحراء الحارقة. فسكن تيمم وتصبب
عرقًا، ثم بادرها بسؤال:

- من أين أنتما؟

فأدار تيم رأسه فجأة ونظر إليهما بغضب شديد، ثم صمت خجلاً،
حتى سألتته كلارا:

- علام يضحك صديقك؟

- أبداً، فهما دائماً على هذا الحال يجبان الضحك والمزاح.

- لا أراهما بهذا القدر من الفكاهة واللطف.

فضحك تيم لذلك كثيراً وهو ينظر إليهما، ثم أعاد نظره إلى كلارا.
فوجدها تهتمُّ بوضع سماعات مشغّل الـ MP3 في أذنيها، فسألها بفضول:

- ماذا تسمعين؟

- أستمع إلى أغنية لفريق إنجليزي اسمه Pink Floyd.

- حقاً؟! رائع أنا أعشق هذا الفريق، خصوصاً حفل Pulse وأغنية

Comfortably Numb.

- حقاً! هذا رائع، أحبيك على اختيارك.

- أشكرك. حسناً لن أزعجك، أنتركك وما تسمعين.

خيّم الصمت على جميع الركاب حتى وصلوا إلى المكان الذي ستنتقل
منه الرحلة. فنزلوا واستقلوا سيارات الشاطئ واستمعوا جيداً إلى التعليمات،
ثم انطلقوا في سرب صعوداً إلى الجبل.

استغرقت الرحلة ساعتين ذهاباً وإياباً وسط الطرق الجبلية الوعرة
ومشهد الغروب الساحر، تخللتها جلسة في استراحة بدوية للاسترخاء وتناول
المشروبات والتقاط الصور. استغل تيم الفرصة ليشتري هديتين تذكاريتين
لكلارا ومارجاريتا من امرأة بدوية بسيطة تقف بجوار الاستراحة، بحجة
الاعتذار عما بدر منه في اليوم السابق بغير قصد، فشكراه لذلك وقبلها
منه بترحاب.

بعد العودة إلى نقطة الانطلاق، كانت الحافلة في انتظارهم، فركبوا جميعاً وغلبهم النوم حتى وصلوا إلى المنتجعات.

في صباح اليوم التالي نزل تميم مع صديقيه لتناول طعام الإفطار في المطعم باكراً في التاسعة والنصف. كانت أنفسهم تتوق هذا الصباح إلى إفطار مصري أصيل؛ فتناولوا الفول والطعمية والبيض والجبن والسلطة الخضراء والمخللات، ثم الفطير مع العسل الأسود.

وهم يتناولون الطعام مال ماجد على تميم وقال له:

- أين أصحابك؟

فأجابه تميم في ضجر:

- ألا تمل من هذا السخف؟ لا أعلم.

- لكن أقول لك الصراحة، إنهما لطيفتان ومهذبتان.

- نعم؛ هما كذلك، لكن لا شأن لك بهذا.

- انظر يا سليمان كيف يغار صاحبك ههههههههههه.

- حقاً يا أخي سبحان الله! ضرب الحبيب كأكل الزبيب هههههههههههههه.

- ألا تأكلان في صمت يا أسخف خلق الله؟!

أتمّ الثلاثة الفطور وقام سليمان ليُعدّ فنجان الشاي بينما أشعل ماجد سيجارة. لم ينتظرهما تميم وسبقهما إلى المسيح؛ كان يأمل في أن يجد كلارا فيتجاذب معها أطراف الحديث قبل أن يُطبّق صديقه على أنفاسه مجدداً.

كان البهو مزدحماً بفوج من السائحين الأجانب والكثير من الحقائق

والأمتعة، لم يهتم تميم بمروره عليهم هل هو فوج جديد أم مغادر، حتى وجد عند الباب الموصل إلى المسبح كلارا تجلس بجوار أمها على أريكة ويبدو عليهما الاستعداد للمغادرة. فارتبك، ولم يتردد في التوجه إليهما بالسؤال قاصداً كلارا، وقد بدا عليه التأثر الكبير:

- هل ستغادران اليوم؟

- نعم؛ انتهت رحلتنا سريعاً للأسف.

- صحيح، للأسف الشديد! أتمنى أن تكونا قد أمضيتما وقتاً طيباً.

- نعم؛ قد استمتعنا كثيراً، بلدكم جميل جداً وشعبكم ودود، رغم

استغلال بعض التجار والسائقين الجشعين.

- نعم؛ معك حق في ذلك، لكن لا يمنعكما هذا من تكرار الزيارة.

- بالتأكيد.

- حقاً؟ هل أعتبر ذلك وعداً؟

ابتسمت كلارا والتفتت إلى والدتها التي أجابت:

- لا أجد مانعاً من ذلك، فقد استمتعنا كثيراً.

سُرَّ تميم كثيراً لسماع ذلك، فاستجمع قوته وسأل كلارا:

- هذا رائع! هل أطمع إذن في أن نتواصل بعد العودة بسلام عبر

الإيميل أو الماسنجر حتى أسعد بلقائكما مرة أخرى العام القادم؟

ثم تظاهر بإخفاء وجهه سريعاً بظاهر كفه كأنه يخشى تلقي صفة

جديدة، فضحكتا كثيراً لهذا الفعل. لم يكرر تميم السؤال وانتظر رد كلارا

التي صمتت ولم تدري ماذا تقول، لكنها نظرت في المقابل إلى أمها التي

أجابت:

- لا مانع عندي، أنت شاب مهذب وأنا أطمئن لك.

- لا أدري كيف أشركك يا مارجاريتا، لقد سررت كثيراً لذلك.

على الفور انطلق تميم إلى موظف الاستقبال وطلب منه ورقة وقلمًا على أن يعيده إليه في الحال، ثم عاد إلى كلارا وقسم الورقة إلى نصفين، وكتب على النصف الأول بريده الإلكتروني على موقع هوميل وسلّمه لكلارا، وكتبت هي عنوان بريدها على نفس الموقع في النصف الآخر من الورقة وسلّمتها له، فوضعها في جيب المايوه وودعهما وداعًا أخيرًا ثم انصرف مغتمًا نحو المسيح.

كانت المياه الفيروزية الرائقة تنادي تميمًا بالإقبال عليها وعدم التفكير في أي شيء آخر، فخلع التيشيرت ووضعه على شيزلونج، وانطلق نحو المسيح وهمّ بالقفز فيه. وما أن وصل إلى الحافة وأخذ وضع القفز حتى تذكر الورقة التي في جيبه، ولأنه لم يتمكن من كبح الجراح والتوقف، اختل توازنه وقفز في الماء بحركة بهلوانية عجيبة تمكن بها من إخراج الورقة من جيبه ورفع ذراعه لأعلى لكي لا ينزل بالورقة في الماء فتبتل. وتمكن بنسبة كبيرة من ذلك، إلا أنه أصيب في المقابل بضربة شديدة من الماء في جنبه كضربة السوط، لكن لا بأس فهذا أخف الضررين.

خرج بعدها من الماء يخفي تألمه عن أعين الجالسين. الآن يريد أن يحتفظ بالورقة في مكان آمن؛ كي لا تضيع، فلم يجد إلا أن يصعد إلى الغرفة ليضعها في حافظته. فجفف نفسه سريعًا بالمنشفة الدافئة من حرارة الشمس، ثم ارتدى التيشيرت وتوجه نحو الغرفة من نفس الطريق. نظر إلى الأريكة في البهو فلم يجد كلارا ولا مارجاريتا، فاغتم، ووجد صديقيه يُقبِلان عليه فاغتم لذلك أكثر؛ فلم تكن لديه رغبة في أن يخبرهما بما

القاهرة، الأربعاء 14 سبتمبر 2005

انتهت الإجازة سريعًا كعادة كل شيء جميل. بعد ثلاثة أيام من رحيل كلارا، عاد تيم إلى القاهرة وصخبها وزحامها، وإلى العمل وضغوطه ومشاكله. فور وصوله إلى بيته وقت المغرب، وسلامه على والديه اللذين افتقدهما كثيرًا، دخل الحمام وغير ثيابه ثم جلس ليتحدث مع والديه حتى فرغ من تناول الطعام، ثم دخل إلى غرفته وفتح جهاز اللابتوب وجلس به على سريريه، وأخرج من حافظته الورقة المكتوب فيها إيميل كلارا لبحث عنه على الماسنجر. كتب الإيميل مدققًا في كل حرف، ثم أعطى أمرًا بالبحث وهو قلق من أن تكون قد كتبت له إيميل خطأً فيفقدتها للأبد. فما هي إلا لحظات حتى ظهر له حسابها في نتيجة البحث، يا للفرح! لم يجد لها صورة شخصية ليتحقق منها، أو لأنه يشناق إليها بعبارة أدق، فأرسل إليها طلب إضافة على الفور، ثم فتح بريده الإلكتروني ليرسل لها رسالة، فكتب:

«كيف حالك كلارا؟ وكيف حال ماجاريتا؟ أتمنى أن تكونا بخير ووصلتما بالسلامة وأن يكون كل شيء على ما يرام، أرسلت لك طلب إضافة على الماسنجر أرجو قبوله، أتمنى أن نتواصل قريبًا، تحياتي».

مَنى نفسه أن تكون متاحة على الماسنجر في هذا التوقيت فتفتح رسالته وتقبل صداقته، فانتظر بجوار اللابتوب قدر نصف الساعة حتى استسلم للنوم.

مضى ما يزيد عن أسبوعين على إرسال تميم رسالته، لم تتمكن فيهما كلارا من الدخول إلى الإنترنت بسبب عطل أصاب شاشة جهاز الكمبيوتر والحاجة إلى شراء شاشة جديدة. لم تستطع مارجاريتا فعل ذلك قبل استلام راتب الشهر الجديد، فالرحلة قد استهلكت مبلغًا كبيرًا من المال المدَّخر. مع حلول شهر أكتوبر، أهدت مارجاريتا ابنتها شاشة جديدة أحدث وأكبر، وعاد الاتصال بالعالم الخارجي بعد انقطاع، وكأن الماء عاد إلى الصنبور وأعاد الحياة إلى البيت؛ ربَّاه كيف كانت الحياة بغير إنترنت! أول ما دخلت عليه بعد توصيل الشاشة في المساء، بعد عودتها من التمرين وأخذ قسطٍ من الراحة، هو الإيميل؛ فمن المؤكد أنها ستجد كثيرًا من الرسائل.

بالفعل وجدت سبع رسائل:

- لا بد أن الأصدقاء افتقدوني كثيرًا وأرسلوا للاطمئنان عليّ.

لكن سرعان ما تبدد هذا الشعور الرقيق بمجرد الدخول على الإنبوكس؛ إذ تفاجأت كلارا بأن خمس رسائل من السبعة هي رسائل تنبيه من إدارة الموقع تفيد بأن رسائل قديمة لم تصل إلى المرسله إليهم، يا للإحباط! كانت الرسالة السادسة مرسله من صديقها أندري غير المرغوب فيه، والذي أرسل للاطمئنان عليها ولمعرفة سبب اختفائها منذ آخر رسالة بينهما، مدعيًا أن صورته شبه العارية قد أرسلها بالخطأ! فلم تجبه كلارا.

الرسالة السابعة كانت تلك التي أرسلها تميم.

اختلقت مشاعرها بخصوص الرسالة، فلم تستطع تحديد هل هي مسرورة أم غير مكترثة، لكن في كلتا الحالتين هي لفنة طيبة منه، ولن يضر في شيء قبول الطلب وبعض الدردشة.

فتحت الماسنجر لتجد طلب تميم في انتظارها، ضغطت زر القبول، فوجدت تميمًا متاحًا في حينها:

- يا إلهي! أتمنى ألا يكون ثرثارًا؛ فأنا لا أطيق الدردشة الآن!

كتب لها تميم على الفور بالإنجليزية:

- يااااه أخيرًا! أنا في غاية السعادة بالتواصل معك مجددًا كلارا، كنت فقدت الأمل في ذلك!

فاضطرت للإجابة لاعتيادها الظهور تلقائيًا Online:

- أهلا تميم، شكرًا لك، فقط كان لديّ عطل بالكمبيوتر تم إصلاحه اليوم.

- الحمد لله، وكيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم؛ أنا بخير، ولكنني متعبة قليلًا.

- يا إلهي! خيرًا ماذا بك؟

- أبدًا أبدًا لا شيء، فقط عدت من التمرين مجهدة، والوقت الآن متأخر، الساعة تقترب من العاشرة والنصف ولا زلت مستيقظة.

- صحيح، فالوقت الآن عندي في القاهرة التاسعة والنصف مساءً، وأنا كذلك لم أعد من العمل إلا منذ ساعة وأحتاج إلى الراحة، حسناً لا توجد مشكلة، المهم أنك بخير.

- نعم؛ أنا بخير.

- الحمد لله، إذن نتكلم في وقت لاحق، إن لم يكن عندك ما يمنع،
وشكرًا جزيلاً للإضافة.

- أكيد.

- تصبحين على خير.

- وأنت كذلك، أشكرك.

أطاحت السعادة برغبة تميم الشديدة في النوم بعد يوم عمل شاق وطويل؛ فمنذ تخرجه من الكلية وهو يعمل مبرمجًا في إحدى شركات البرمجة، الأمر الذي يتطلب جهدًا ذهنيًا كبيرًا، إضافة إلى مساعدته لوالده في إدارة أعماله كتاجر أجهزة كهربائية منزلية له معرض كبير بمصر الجديدة.

على الرغم من إنهاكه والصداع الذي تمكن من رأسه ظل تميم جالسًا باللابتوب على سريرته يقرأ المحادثة مرة تلو الأخرى ويسأل نفسه:

- هل هي رحبت بي أم أي أثقلت عليها؟ يبدو لي من ردودها المقتضبة أنها لم ترحب. لا أعلم؛ لعلها مجهددة كما تقول وأنا فاجأتها بالرسالة في موعد غير مناسب، أتمنى ألا تكون هي المحادثة الأخيرة. لا أدري لماذا تشغل كلارا تفكيري بهذا القدر؟ هل لأنها مجرد فتاة أجنبية جميلة؟ أم لأن قلبي تعلق بها حقًا؟ وماذا بعد التعلُّق؟ فيما تفكر يا مجنون؟ يا ربي! أنا بحاجة شديدة إلى الراحة، فالיום كان طويلًا جدًّا. جسمي يؤلمني كثيرًا، لكن ذهني لا يتوقف عن التفكير، هل آخذ من أقراص والسدي المهدهنة؟!

وضع تيمم اللابتوب بجواره وأظلم الغرفة تمامًا محاولاً النوم، وبعد محاولات استمرت ساعة انتهى الأمر باستسلام ذهنه لآلام جسده وطلبه للراحة. لكن هيهات؛ فقد اقتحم أخوه كريم الغرفة وأضاء الأنوار، فقال له تيمم في انزعاج شديد، مخفياً عينيه بيده:

- قلت لك مراراً لا تدخل عليّ بهذه الطريقة؟ وأن لا تضيء الغرفة هكذا وأنا نائم!

- وكيف أدخل إذن والغرفة كالحة السواد؟!

- ليس هذا شأنِي، أضِئِ الغرفة المجاورة، استخدم كشاف هاتفك المحمول، أي شيء، تصرف!

- المرة القادمة بإذن الله.

- مستفز!

- شكراً.

- أين كنت؟

- في درس الكيمياء.

- وكيف الحال؟

- لا توجد كيمياء للأسف.

- لا أفهمك.

- فتاة تحضر معنا الدرس لا تبادلني الاهتمام إطلاقاً.

- وأنا الذي ظننتك مقبلاً على الثانوية العامة بجد واهتمام، يا أخي لا تشغل بهذه الأمور الفاشلة التي ليس وراءها طائل سوى المشاكل والاكتئاب، وأولى لك أن تصرف نظرك عن هذه التفاهة، وإلا أخبرت والدك

الذي يدبر لك هذه المصارييف. هيا لتتظر ماذا أنت فاعل الآن سريعاً ثم
أطفئ النور وأغلق الباب ولا توقظني مجدداً.
ثم أدار ظهره لكريم وقال في نفسه: نعم النصيحة هي لو أنا عملت
بها !

تُمر أيام أكتوبر الخريفية وتبدأ المحادثات تتوالى بين تميم وكلارا بشكل
مقتضب من جانبها. يلاحظ تميم أحياناً كثيرة تظاهر كلارا بالانشغال عنه،
والاعتذار بشكل مفاجئ لإنهاء المحادثة لأي علة. وأحياناً أخرى تطول
لتشغل الساعات في أمور تافهة ومملة، يستأنس تميم بوجودها رغم
سأمها لمجرد التغلب على الاكتئاب الموسمي الذي يعاني منه في هذا
التوقيت من كل عام. يحاول اكتشاف شخصيتها وطباعها، فلا يستطيع
التحديد هل هي تستثقله ولا تود إحراجه، أم أنها متقلبة المزاج، أم أن
لديها بالفعل ما يشغلها... كثيراً ما يلوم نفسه بعد هذه المحادثات التي
لا طائل من ورائها سوى ضياع الوقت وتعلق القلب بأمر مجهول، على
عكس ما غرست فيه والدته وكانت تديم له النصيحة أيام المراهقة
بالتحدث مع الفتيات في الأمر الضروري فقط، حينما كان يقضي الليل كله
على برامج الشات؛ الـ mIRC والـ ICQ، وتستيقظ بين الحين والآخر على
صوت صفير الـ مودم Modem المزعج لتجده يرددش مع البنات. يتذكر
حينما رفعت سماعة الهاتف في يوم ما من الطرف الآخر فوجدته يواعد
إحداهن باللقاء، فتشاجرت معه. وداهياً كانت تردد عليه القول: «لو
كان لك أخت لم تكن لتسمح لها بهذا»... رغم هذه الذكريات الأليمة لم
يستطع منع نفسه عن التواصل مع كلارا؛ فقد شغلت قلبه وحيزاً كبيراً

من تفكيره، وبدا له أنه لا يتحدث إليها بنفس العقلية المراهقة القديمة، وأنه يتطلع إلى ما هو أبعد من الـ «شات».

تجراً ذات يوم فكتب لها:

- أريد أن أسألك سؤالاً منذ أول يوم رأيتك فيه وحدث ما حدث، لكن لم تأتني الفرصة.

- كنت قد نويت الانصراف الآن، لكن لا بأس، ما هو السؤال؟

- لماذا كانت ردة فعلك بهذه القسوة والانفعالية تجاه ما بدر مني في مباراة الكرة الطائرة؟

- أنا بطبعي عصبية لدرجة كبيرة ومتهورة، وحينما يتعلق الأمر بموقف مشابه لما حدث يُجنُّ جنوني. السبب في ذلك هو عقدة تسبب لي فيها حادث تحرش تعرضت له وأنا طفلة صغيرة... ثم قصت له ما حدث من مدرب الجمباز.

- ممممم، أنا آسف جداً لهذا، ولكن هل هذا الموقف أثر على حياتك لدرجة أنك ترفضين الزواج مثلاً؟ هل لم يسبق لك الارتباط أو الدخول في علاقة؟

- هذا سؤال جريء أستغرب أن يصدر منك، ولكن على كل حال سأجيبك: بالطبع لا أرفض الزواج، فالأمر لم يصل معي لهذا الحد، ولم يسبق لي الدخول في علاقة؛ فأمي محافظة ومتدينة وتخاف عليّ جداً، ولعلك لاحظت في شرم الشيخ أنها لا تفارقني لحظة، حتى أندري زميلي في الدراسة الذي بادلني الإعجاب، أمي لم تعجب بسلوكه ومنعتني من مصادقته وحذرتني منه، وكان ذلك سبب أزمة كبيرة بيني وبينها.

- معنى ذلك أن سبب امتناعك فقط هو والدتك؟

- كان هذا في بادئ الأمر، لكن لا أخفي عليك أنني اقتنعت بوجهة نظرها، خصوصاً بعدما علمت مؤخراً بارتباط أندري بزميلة أخرى وإقامته علاقة معها في غضون أيام، بل في نفس الوقت الذي كان يرأسني فيه. فتيقنت أن هذه العلاقات لا تحركها إلا الشهوة، والزواج أرقى من ذلك.
- هذا الكلام مبهر وراقٍ جداً، وعذراً، غريب على مجتمعكم.
- قد يكون، أشكرك. هل لي الآن أن أنصرف.
- بالتأكيد كلارا، أراك لاحقاً.
- أراك لاحقاً تميم.

القاهرة، الجمعة 9 ديسمبر 2005

كعادته يوم الإجازة كل جمعة، يستيقظ تميم قبل الصلاة بساعة، فيغتسل ويبكر إلى المسجد ليقراً سورة الكهف، ثم يعود فيشاهد التلفاز حتى يحين موعد الغداء عصرًا، فهذا هو لقاء الأسرة الأسبوعي الذي تجتمع فيه على مائدة الطعام ولا يتخلف عنه أحد. إلا هذا اليوم؛ فقد تخلف والده عن تناول الغداء معهم، فسأل تميم والدته:

- أين أبي؟

- نزل عثمان باكراً ولم يقل لي شيئاً سوى أنه مشغول اليوم في بعض الأعمال ولن يستطيع اللحاق بنا وقت الغداء. لم أسأله إلى أين سيذهب تحديداً؛ لأنه منذ ليلة أمس وهو حاد المزاج جداً، وأنت تعرف كيف هي طباعه.

- نعم؛ أعرف، والله أنا أخشى دائماً على صحته من هذه الحدة والعصبية، لكن هذا هو حال أصحاب التجارات دائماً.

- ربك يصلح الحال.

- آمين يا رب، خسارة أن تفتوته هذه المملوخية الرائعة!

- بالهناء والعافية يا حبيبي.

بعد أن تناولوا الطعام، نزل كريم ليلحق بدروسه، ودخل تميم إلى الحمام ليغسل يديه وأسنانه، ثم خرج إلى المطبخ ليعدَّ كوبًا من الشاي بورقات النعناع الخضراء الطازجة التي اشتراها من أحد الباعة الجائلين بعد الصلاة، وجذبه إليها لونها الأخضر الزاهي ورائحتها الذكية النفاذة. فدخل بالكوب إلى غرفته وجذب جهاز اللابتوب من على المكتب ليستلقي به على سريره. كان الماسنجر مضبوطًا على أن يعمل تلقائيًا فور تشغيل الويندوز وأن يظهر حالة تميم Away لكل الأصدقاء؛ دفعًا للحرص من كل من لا يرغب في الحديث معه، خاصة هذه الساعة التي يريد فيها الاستمتاع بكوب الشاي بهدوء. صار مؤخرًا لا يجنّد ضبط الحالة Offline لكي لا يفوت المحادثة مع كلارا، والتي كانت في أحيان كثيرة تتحدث إليه وحالتها Offline كذلك.

كانت حالة تميم المزاجية تميل للاستماع إلى بعض كلاسيكيات موسيقى الروك، فوضع السماعات في أذنيه واختار أغنية: Jimi Hendrix - Woodoochild - Live at Woodstock 1969

ثم سجّل على الماسنجر أنه يستمع إليها كنوع من التباهي أمام الأصدقاء بذوقه واختياره.

كانت كلارا تتابع ذلك في صمت متخفية وراء حالتها الـ Offline، فدفعها الفضول لتشاغب تميم:

- من الذي يستمع إذن وأنت Away؟

فأجابها سريعًا بوجه ضاحك، ثم كتب:

- عندك حق، فاتني هذا الأمر، كان الأوقع أن أضبط الحالة Busy، لكن

لا بأس، فالهمم بالنسبة لي أن أتحدث إليك على أي حال. كيف حالك كلارا؟

نفسك بنفسك Help Yourself، وكان ممتعًا للغاية، وتعلمنا منه مسؤولية الحفاظ على المكان ونظافته.

- هذا صحيح.

- مناسبة كلامنا عن موسيقى الروك، فقد حدثت بعد ذلك بثلاث سنوات قضية اشتهرت جدًا في مصر وقتها عرفت باسم «عبدة الشيطان»، أتهم فيها مجموعة من الشباب بسماعهم لموسيقى الروك والبلاك ميتال، ويتخذون من قصر مهجور شهير اسمه قصر البارون ملتقى لهم، وكانوا يتجمهرون كذلك أمام هذا الفرع لماكدونالدز، وقد رأيتهم هناك عددًا من المرات كانوا يلبسون السواد ويطيل الذكور منهم شعورهم، ولم أهتم وقتها بمتابعة التفاصيل، ولم أكن بدأت في الاستماع إلى موسيقى الروك بعد.

- موسيقى البلاك ميتال مقززة حقًا ولا أرى فيها أي فن ولا شيء سوى أنها طقوس شيطانية غبية. لكن مثل هذه التجمعات معروفة لكل المهتمين بموسيقى الروك وتقاليعها، وبشكل عام هي متعارف عليها لكل المهتمين بفن أو بنمط حياة معين، كالمهتمين مثلًا بدراجات هارلي دافيدسون Harley Davidson تراهم يجتمعون ويسرون في أسراب وبهيئة وأزياء جلدية مميزة. أتعرف؟ حفل وودستوك هذا الذي تسمع منه أغنية هندريكس هو أضخم المحافل الفنية والموسيقية التي حدثت حتى اليوم؛ كان حفلًا موسيقيًا كبيرًا عُقد في مزرعة في نيويورك لمدة ثلاثة أيام متواصلة تحت عنوان (ثلاثة أيام من السلام والموسيقى) Days 3 of Peace and Music، وحضره قرابة نصف مليون شخص من الهيبيز بطابعهم البوهيمي المتميز.

- الهيبيز عندنا يعتبرون مادة للتندر والسخرية، وحينما نَصِفُ أحدًا

بأنه يعيش مثل الهيبيز فنقصد بها أنه شخص أشعث أغبر هائم على وجهه يعيش على هامش الحياة.

- الهيبيز حقًا يعيشون في حالة قريبة من تلك، وحياتهم ضائعة بين العلاقات الجنسية المفتوحة والمخدرات، وينقمون على حكومات بلادهم، وينخرطون في حركات تعرف باسم حركات السلام العالمي تناهض الحروب والدمار والتسليح النووي. إلا أن أزياءهم النسائية مبهجة وتعجبني، رغم أن والدتي تحفظ عليها، وتشاجرت معي في يوم معي بسبب ارتدائي لثياب مشابهة.

المهم، انخرط في هذه الحركة عدد كبير من مؤسسي موسيقى الروك، مثل جون لينون أحد أعضاء فريق البيتلز. وبعضهم أيضًا شارك في حفل وودستوك ك كارلوس سانتانا، وجيمي هندريكس الذي عزف فيها على جيتاره السلام الوطني الأمريكي بأداء يوحى بالعنف والقهر والاستبداد، وتلاعب بأوتار الجيتار ليحدث أصوات الحروب خلال عزفه للسلام الوطني.

- هذا كلام أول مرة أعرفه، لكن لو لي أن أسأل: لم تشاجرت والدتك معك؟ هل لأن أزياءهم مثيرة؟

- هذا سبب، والسبب الآخر أنها تشككت في أن أكون قد بدأت أتأثر بهم وبطريقة تفكيرهم وبعيائهم الماجنة، أو أنني بدأت أتعاطى نوعًا من المخدرات. كان مما ذكرته لي أثناء المشاجرة أن في فترة الحرب الباردة وصراع التسليح النووي بين السوفييت وأمريكا، كان الـ KGB يدعم هذه الحركات في أمريكا بشكل خفي غير مباشر، نظرًا لانخراط عدد كبير من الشباب الأمريكي بها، الأمر الذي مثّل قوة ضغط مؤثرة على الحكومة الأمريكية، أدت في النهاية إلى إنهاء الحرب الفيتنامية.

أقترح عليك سماع أغنيته المفضلة لهندريكس بأداء جاري مور Gary Moore. هيا، اذهب.

- جميل، بالتأكيد أفعل، أراك لاحقاً كلارا.
«مدهشة!».

نظر تميم في الساعة فوجدها تقترب من السادسة. ارتدى ملابسه وأحضر الملف الأخضر ونزل ليستقل سيارته، فإذا بالإطار الأمامي الأيمن للسيارة هو والأرض سواء.

لم يتسع الوقت لأن يغير الإطار، فوقف على ناصية الشارع العمومي ليستقل تاكسي. بينما هو ينتظر وجد مينيبياص غير مزدحم يقف في المحطة ووجهته إلى نفس المكان، ميدان روكسي، فلم يتردد في ركوبه خاصة وأن اليوم الجمعة والشوارع غير مزدحمة.

عند اقترابه من الميدان، ظن تميم أنه لا يزال بكامل لياقته، فقفز من المينيبياص الذي رفض التوقف قبل تقاطع الإشارات لكيلا تفوته الإشارة الخضراء، فتعثرت قدما تميم وانكفأ على وجهه على الأسفلت وزحف على بطنه باسطة ذراعيه للأمام كالذي يسبح في الماء، ويقبض الملف في يده. لقد أفلت بالكاد من سيارة تُمر ببطء تمكن سائقها من التوقف سريعاً وضغط إشارة الانتظار لتنبيه من خلفه.

استند تميم على كفيه وقفز سريعاً إلى الرصيف، ليجد الميدان كله تسمراً مكانه ينظر إليه، وسط نفير سيارات وصخب وارتباك شديد، لم يهتم إلا بالنظر شزراً إلى المينيبياص الذي تجاوز الإشارة ومضى في طريقه ولم يُلق له أي بال.

أقبل عليه بعض المارة ليطمئنوا عليه فطمأنهم أنه بخير، بعض السجحات السطحية والكدمات في ذراعيه جرّاء الوقوع والزحف عليهما، وبالطبع ملابسه لم تكن محل السؤال!

شكرهم ومضى في طريقه متجهًا نحو حديقة الميريلاند. وهو يسير بخطى مسرعة شرد بذهنه مسترجعًا ما مرَّ به قبل ثماني سنوات؛ حينما ذهب في رحلة صيفية إلى لندن برفقة أسرة أحد أصدقاء الطفولة. وهناك اتجاهات الشوارع عكس ما نألفه، والمقود في يمين السيارات. لا أحد كان يستطيع مرور الشارع إلا بالضغط على زرار مرفق بعامود الإشارة والانتظار قليلًا حتى تتحول الإشارة إلى الأخضر ويؤذن له بالمرور. كان تميم ملتزمًا بهذا النظام إلى أقصى حد، بل وسعيدًا به متمنيًا تطبيقه في بلده. لكن في لحظة سهو، كتلك اللحظة التي ينسى فيها كلمة السر المعتاد عليها منذ سنوات، نظر عن شماله فلم يجد أي سيارة قادمة، والاتجاه الآخر كان خاليًا تمامًا، فهمَّ بالعبور بغير التزام بالإشارة، وهو في منتصف الطريق فوجئ بصوت نفير سيارة يقترب منه مسرعًا، فالتفت شمالًا مرة أخرى فلم يجد شيئًا، فالتفت يمينًا فإذ بسيارة جاور تقبل مسرعة وعلى وشك الاصطدام به، فقفز قفزة بهلوانية إلى الرصيف المقابل، ليجد جميع المارة قد تسمَّروا في أماكنهم ينظرون إليه شزرًا، فما منه إلا أنه قال في نفسه: Sorry guys, Egyptian.

أخيرًا وصل تميم إلى العنوان، واستقل المصعد إلى الدور الخامس حيث يسكن عمه. ضرب الجرس وفتحت له زوجة عمه نجلاء فهاها المنظر:
- ما هذا يا بني، ماذا الذي أصابك؟ أنت بخير؟! تفضل بالدخول.

- أنا بخير يا طنط الحمد لله، حادث بسيط وأنا أعبّر الطريق، ربنا ستر.
- الحمد لله رب العالمين، ربنا يحفظك ويسلمك من كل سوء.
- آمين يا رب، وأنتم كذلك، أستأذنك في دخول الحمام.
- أكيد يا تميم بلا استئذان، تفضل.
- صحيح، أبي عندكم، أليس كذلك؟
- نعم؛ هو بالداخل مع عمّك.
- تمام، أستأذنك أن تسلمي له هذا الملف، وأنا سأدخل إليهما بعد الخروج من الحمام.

أوقد تميم نور الحمام وأغلق على نفسه الباب ونظر في المرآة، فضاق صدرًا بما أصابه:

- لم أُصَبْ بمثل هذه الجلطات منذ أيام لعب كرة السلة في النادي، هل أعود مجددًا إلى الميركروم ومثل هذه الأشياء!

فتح الصنبور وغسل وجهه ويديه وذراعيه الملتهبتين، ثم قضى حاجته سريعًا وهندم ثيابه المسودة من أثر الأسفلت، ثم جفف يديه بمناديل ورقية وخرج إلى غرفة المعيشة التي وصله تكييفها المنعش من آخر الطرقة. دخل وألقى السلام، فأجابوه:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ما الذي حدث لك يا بني، لم أفهم شيئًا من نجلاء؟!

- أنا بخير يا عمّي لا تقلق حادث بسيط، كيف حالك يا أبي؟

- الحمد لله على سلامتك يا بني، لماذا لم تأت بسيارتك؟

- وجدت إطار السيارة هو والأرضُ سواء، وخفت أن أتأخر عليك
فتركتها وركبت المواصلات؟

- المهم أنك بخير؟ هل تشعر بأي ألم؟

- لا يا أبي، مجرد كدمات وخدوش سطحية الحمد لله.

- الحمد لله، حسنًا، لو انتظرت نصف ساعة بالضبط سنعود معًا إلى
البيت.

- حسنًا يا أبي سأنتظر.

- عاصم ابن عمك في غرفته يمكنك الدخول إليه.

- حقًا؟ ظننته بالصيدلية، تمام سأدخل له فأنا أفقده كثيرًا.

سألته نجلاء؟

- ماذا تود أن تشرب يا تميم؟ لدي عصير برتقال طبيعي سيعجبك، أم
تريد شيئًا دافئًا.

- لا لا، سأشرب البرتقال.

- من عيناى، سأحضره لك في غرفة عاصم.

عاصم ابن عم تميم والذكر الوحيد في أبناء عمومته، كان دائمًا هو
الأقرب إليه. يطرق تميم الباب على عاصم استئذانًا في الدخول، فدخل
فوجده جالسًا على سريره يضع اللابتوب على فخذه والسماعات في أذنيه
والغرفة مظلمة. ضحك له عاصم وألقى باللابتوب إلى جواره وقام ليضيء
الغرفة ويعتنق تميمًا بحرارة:

- يااااه! كيف حالك يا صديقي، افتقدتك كثيرًا، لم تأت مع والدك؟

- وأنا أيضًا أفتقدك يا عاصم، لم يكن في حساباني أنني سأتي لزيارتكم اليوم، لولا أن أبي اتصل بي وطلب مني المجيء لأحضر له بعض الأوراق.

- إذن لا أراك إلا صدفة!

- نفس الكلام أقوله لك إذن! كيف حالك؟ وكيف حال الصيدلية؟

- صراحة يا هميم، الأمور ليست على ما يرام، ويبدو أنني سأصفي هذا المشروع مع نهاية هذا العام.

- كيف ذلك؟! فمعلوم أن الصيدلية تجارة مربحة.

- هذا ما يبدو للناس، لكنه ليس كذلك في كثير من الأحوال؛ يعني أنا مثلاً مستأجر لهذه الصيدلية التي لم تكن طيبة السمعة، وأنا سعيت جاهداً لأغير انطباع العملاء عنها سواء بالخدمة أو بتوفير احتياجاتهم، لكنني بدأت بداية ضعيفة برأس مال متوسط دبّره لي والدي رغم أنه كان في إمكانه تدبير ضعف هذا المبلغ، أو حتى يشتري لي صيدلية أتملكها! كان يتحجج بأن لديه التزامات أخرى تجاه أمي وأختي. أضف إلى ذلك أن الصيدلية كانت تقع في منطقة سكنية هادئة بجوار معهد للسياحة والفنادق، فلك أن تتخيل كيفت كانت الفترة الصباحية مرهقة بغير عائد مُرضٍ؛ معظم أسئلة الطلبة لا تخرج عن إطار كيس الجل وكبسولة الصداع وأكياس الكريم والفوط الصحية وقياس الضغط والتغيير على الجروح بسبب الشجارات اليومية، ومحصلة في النهاية لا تتعدى المئتي جنيه. وبحلول المساء وانصراف طلبة المعهد تصير المنطقة كمدينة الأشباح بعدما كانت منذ لحظات كميدان العتبة في صخبها. أستشعر في كل يوم حجم الخازوق الذي أهداني إياه المستأجر القديم، الذي أفتعني بأن المنطقة ذات كثافة سكانية عالية، وأن طلبة المعهد لا يتوقفون عن

- أسأل الله أن يقدر لك الخير حيث كان يا عاصم.

- آمين يا رب.

- ماذا كنت تشاهد على اللابتوب؟

- أشاهد فيلم Batman Begins.

- لا زلت كما أنت، مجنون كوميكس.

- بالتأكيد، دعنا نرى ماذا سيفعل كريستوفر نولان مع كريستيان بيل

هذه المرة!

بينما هما جالسان يتجادبان أطراف الحديث سمع تميم نداء أبيه له من الخارج، فقام وسلّم على عاصم وتواعدا كالعادة على لقاء قريب.

عاد تميم وأبوه إلى البيت في الثامنة والنصف مساءً. دخل غرفته ولم يكن أخوه قد عاد من الدرس بعد، فغيّر ملابسه وفتح اللابتوب وجلس به على السرير أملًا في أن يجد كلارا فيكمل معها درشتته، ولكنه لم يجدها، فأخذ يراجع المحادثات السابقة بينهما حتى غلبه النعاس.

القاهرة، الخميس 2 فبراير 2006

كان تميم قد أضاف كلارا إلى قائمته البريدية الطويلة التي يرسل إليها بصفة دورية كل ما يراه طريفاً ومفيداً. وكانت كلارا تهتم برسائله وتتابعها خصوصاً التي تحمل صوراً شائقة، أما ما كان يحتوي على مقالات باللغة العربية فكانت تتجاهله ولا تستفسر عنه، إلا هذه الرسالة البريدية التي وصلتها يوم الأربعاء 1 فبراير، وفيها مقال باللغة العربية يتصدره صور لعدد من المنتجات الغذائية وصورة لعلم الدمارك مشطوب بالأحمر.

كانت المحادثة بينهما قد انقطعت لبضعة أيام، في كل يوم ينتظرها تميم بالساعات فلا يجدها، حتى ظهرت يوم الخميس مساءً في حالة Busy، فكتب لها على الفور:

- كلارا، أين كنت طيلة هذه الأيام؟

فأجابته بعدها بدقيقتين:

- أهلاً تميم، كيف حالك؟ أبداً لا شيء، فقط كنت منشغلة مع أمي

لأن مرضها يشتد عليها بين الحين والآخر، خاصة في هذا الطقس البارد.

- خيراً؟ ماذا بها؟

- هي تعاني من قصور مزمن في إفراز الغدة الدرقية.

- يا ربي! إنه مرض لعين فعلاً، خالتي تعاني منه منذ سنوات، وتأخذ له علاجاً دائماً. أسأل الله تعالى لها ولمارجارتنا الشفاء.

- آمين، أشكرك. قل لي؛ ماذا كان في هذه الرسالة البريدية التي فيها صورة لمنتجات غذائية وعلم الدمارك مشطوب عليه بالأحمر؟

- نعم؛ هذه الرسالة، ربما وصلتك بالخطأ؛ فأنا لي قائمة بريدية أرسل لها كل الرسائل بغير استثناء لأحد. وهذه حملة مقاطعة للمنتجات الدماركية دعت إليها كل الجهات الإسلامية كإجراء ضد الرسومات المسيئة لرسولنا محمد -عليه الصلاة والسلام- التي نشرتها صحيفة يولاندس بوستن في سبتمبر الماضي، وأعاد نشرها عدد من الصحف الأوروبية مؤخراً.

- لقد شاهدت بالفعل هذه الصور وأرى أنه أمر غير لائق وسوء استخدام لحرية الرأي والتعبير، وبالتأكيد لكم الحق في هذا الموقف الغاضب بغض النظر عن الإجراءات المتخذة.

- أشكرك لذلك.

- لكن عندي سؤال أرجو ألا يساء فهمه، هل لي الحرية أن أسأل؟

- نعم؛ بالتأكيد.

- لماذا يظهر لنا دائماً من المواقف ما يثبت أن دينكم حقاً دين عنف وقهر ودموية؟

- بالطبع هذا افتراض عارٍ عن الصحة، وشبهة تلوّكها الألسنة بلا أي وعي أو تفكير، وإن كانت هناك للأسف مواقف مُرُّ بها توحى بصحة بذلك. سأرسل لك اليوم أو غداً على الإيميل مقالات علمية بالإنجليزية توضح ذلك أفضل من كلامي المُرسَل، فالأمر ليس بهذا التعقيد. لكن ما يمكنني أن أقوله الآن وما يهمني أن تنتهي إليه كلارا هو لفتة تاريخية

مهمة؛ فقدّمًا، في العصور الوسطى، كانت بلاد الشام تعتبر حلقة الوصل بين بلادنا وبلادكم، وطبيعي أن يعيش بين المسلمين بعض الكارهين والمعادين لهم، والذين منهم بعض مسموعي الكلمة من علماء الدين المسيحي والرهبان. كيوحنا الدمشقي على سبيل المثال، الذي عاش في أكناف الدولة الأموية، وكتب عددًا من المؤلفات التي تعتبر من أبكر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام، وضمنها القدح في الإسلام والقرآن الكريم ونبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-، والزعم بأنه بدعه مسيحية لواحد من أتباع آريوس أحد كهنة الإسكندرية. فكّري في هذا الأمر: إذا كان عربي النسب واللسان كيوحنا الدمشقي، يلجأ إلى كتابة مفترياته وتشويهاته المتعمدة باللغة اليونانية خشية رد الفعل العلمي والاجتماعي والسلطوي، فلك أن تتخيلي كلارا ما يمارسه غيره ممن يعيشون في أرجاء أوروبا حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظائرهم في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه أوهامهم وخيالاتهم من أساطير وحكايات، ثم يقدمونها إلى عموم الناس على أنها حقائق ووقائع ثابتة!

يمكن القول بأن التصورات المعاصرة لديكم حول ديننا بشكل عام لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية، وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوهة. لم يتغير على مر الزمن إلا مصدر هذه الأفكار المغلوطة دون أن يتغير طابعها. أسألك سؤالًا: كيف كان انطباعك عن مصر وماذا كانت معلوماتك عنها قبل مجيئك إلى شرم الشيخ؟ أليست الصحراء والجمال والأهرامات والآثار الفرعونية والصور التذكارية التقليدية.

- نعم؛ بشكل كبير، ولكن ذلك لأنني لم أجتهد في البحث لا سيما مع توفر الإنترنت.

- ثم اتضح لك وقت المعاينة أن الأمر أبعد ما يكون عن تصورك. هذا تمامًا كما لو اجتهدت في البحث عن معلومات صحيحة عن الإسلام على الإنترنت.

- يبدو أنك قارئ جيد وتناقش في هذه الأمور كثيرًا.

- ليس بالضرورة، ولكنني أحب عادة وضع الأمور في نصابها والبحث وراء الأشياء.

- قد يكون كلامك صحيحًا، فأنا لم أهتم بالقراءة عن الإسلام، وكل معرفتي به هو ما تتناقله وسائل الإعلام، وانطباعي عن معارفنا وجيراننا المسلمين، والذين أراهم يعيشون مثلنا تمامًا ولا يلتزمون بأي شيء مختلف سوى بعض الفروض الشكلية التي لا أفهمها، هذا إن التزموا بها في الأساس.

- ما يدندن حوله الإعلام الغربي بشكل عام هو أن الإسلام دين شهوانية وعنف، وأنه تمسك بفروض شكلية وليس تزكية للقلوب وتطهيرًا لها. وما قد تحتكين بهم من نماذج في حياتك اليومية ليسوا حجة أو دليلًا على صحة الدين أو فساده، بدهي أن الخطأ في التطبيق ليس دليلًا على فساد المشغل ذاته. لا ينبغي أن نحاكم الإسلام بأخطاء المسلمين.

- أتفق معك في هذا.



القاهرة، السبت 25 فبراير 2006

تُمر الأيام والليالي والمحادثات بين تيمم وكلاهما تنجم عن قدر كبير من التناغم والانسجام. أصبحت كلارا مع الوقت أكثر انبساطاً في كلامها وأكثر تحدثاً عن نفسها؛ فحكت له عن والدها والمأساة التي مرت بها ووالدتها منذ عشرين سنة، وحكت له عن أشياء لم يكن ليعرفها قبل ذلك. في المقابل، زاد قلب تيمم تعلقاً، بل وازداد بمرور الوقت قلقاً وتخوفاً من التجرؤ والإفصاح عن مشاعره لكلارا فتصدده ويخسرهما للأبد. كان كل يوم يسأل نفسه:

- ماذا أفعل؟ لا بد أن أصارحها وأقطع دابر هذا الأمر أياً كان الرد.

حتى تشجع في ليلة شتوية وأرسل لها رسالة Offline على الماسنجر كتب فيها:

- متى يتسع وقتك لكي أتحدث معك في أمر مهم قد يطول الكلام فيه ولا أحب مقاطعته؟

وجاءه الرد بعدها بساعة:

- من الممكن غداً في العاشرة مساءً بالتوقيت عندي.

فأجابها على الفور:

- يعني التاسعة عندي، جميل جدًا، على الموعد بإذن الله. شكرًا كلارا.

سرت القشعريرة في جسده لا يدري هل هي بسبب برودة الجو أم بسبب الخوف، وأصابته حيرة شديدة هل يخبر والديه أم يتحدث إلى كلارا أولاً؟ ومتى يخبرهما وهما نائمان الآن؟ وكيف سيكون الحال لو أخبرها أولاً ووافقت ورفضاً؟

ازداد التنميل في أطرافه، فأوقد المدفأة وقفز إلى فراشه محاولاً تسكين نفسه والخلود إلى النوم، ممّنّيًا نفسه بأنه لن يكون إلا الخير بإذن الله.

مضت الليلة بصعوبة، وكان الاستيقاظ أصعب، والذهاب إلى العمل في هذا اليوم المطير كان أصعب وأصعب:

- كيف سأصل في التاسعة وأنا لا أستطيع رفع اللحاف عن جسمي؟

لم يسعفه الوقت للحديث إلى أمه في شيء قبل النزول، ولا إلى أبيه الذي سافر إلى بورسعيد منذ الصباح الباكر. نزل تميم واستقل سيارته، ليصل إلى عمله في العاشرة إلا ربعًا.

تمر ساعات اليوم ببطء شديد، ينتظر التاسعة مساءً بشوق وترقب، حتى تنقضي ساعات العمل في تمام الخامسة. يدخل تميم بيته، فلم يجد من يسلم عليه؛ كان أبوه لا يزال في سفره وأمّه تثرثر مع جارتها في الشقة المجاورة وأخوه في الدرس. توجه مباشرة إلى المطبخ لينظر ماذا طهت والدته ليتجنب سماع الكلمة التقليدية: «لقد سألتكم جميعًا وكلكم أحببتم بأن أطح أي شيء».

وجد حلتين على البوتاجاز فرفع غطاءهما ليجد بداخل إحداهما بازلاء مطبوخة بالجزر وبالأخرى أرزًا. رأى أن يكظم غيظه وأن يتجنب

أية حوارات في هذه الليلة، فأعد لنفسه طبقًا صغيرًا يخرس به معدته المتأوهة، وأكله واقفًا في مكانه، ثم صلى المغرب وضبط منبه الهاتف ليوقظه قبل التاسعة. دخل غرفته واستلقى على سريريه محاولًا النوم قليلاً لكنه لم يستطع، كادت رأسه تشتعل من التفكير.

قام إلى المطبخ قبل التاسعة بعشر دقائق ليعد كوبًا من النيسكافيه، وكان أبوه قد عاد من سفره منهكًا فأخلد إلى النوم، ونامت أمه هي الأخرى، ولم يكن كريم قد عاد من الدرس بعد.

لمح تميم على رخامة المطبخ سبرتاية نحاسية قديمة خاصة بوالديه يستخدمونها يوم الجمعة لشرب القهوة معًا كعادتهم منذ بداية رحلة الزواج. لم يكن تميم يلتفت إليها على الدوام؛ لأن هذا لم يكن مكانها المعتاد في المطبخ، ولم يكن من هواة القهوة التركية، إلا أن شكلها الأنتيكي أثاره لأن يستخدمها لتسوية فنجان من القهوة على مهل. استغل نوم والديه فتسلل إلى النيش واستل منه فنجانًا وطبقًا قديمين مزركشين محظور استخدامهما، وضعهما مع السبرتاية والكبريت في صينية، وكنكة وضع فيها ملعقة سكر وملعقتان بُن أردني غامق مخصوص أحضرتة خالته في سفرها الأخير، وخلطهما بالماء، ثم دخل إلى الغرفة ووضع الصينية على المكتب بجوار اللابتوب.

أوقد السبرتاية ووضع عليها الكنكة، ثم جلس أمام الماسنجر في انتظار كلارا. يمر الوقت فيلتفت إلى السبرتاية فيجدها لم تسوي القهوة حتى اللحظة، فانتبه إلى الفتيل فوجد شعلته ضعيفة جدًا تكاد تنطفئ، فأدرك أن السبرتاية في حاجة للتزويد. أنزل الكنكة ونفخ في الفتيل فأطفأه، ثم أحضر زجاجة السبرتو والقُمع الصغير من أسفل حوض المطبخ وبدأ في

تزويد السبرتاية، ليفاجأ بالفتيل يشتعل تلقائيًا محدثًا صوتًا مفعجًا جعل
تهميم ينتفض. من شدة فرعه ألقى بزجاجة السبرتو المفتوحة فأمسكت بها
النار فأحدثت انفجارًا، وانتقلت النار لتمسك في ملاءة سرير كريم المجاور
للمكتب... الغرفة تشتعل!

انخلع قلب تهميم من الخوف:

- ما الذي يحدث! يا لطيف يا رب.

خرج سريعًا من الغرفة وأغلق الباب خلفه، فدخل الحمام ليملاً دلوًا
كبيرًا بالماء ليعود به سريعًا إلى الغرفة فيجد النار قد زحفت إلى السجادة.
أطاح الماء بقوة إلى داخل الغرفة، ثم أغلق الباب وعاد إلى الحمام ليملاً
الدلو ثانيةً، فخرج ليجد أبويه قد استيقظا من النوم ووقفوا مفزوعين
عند باب الغرفة يسألانه عمًا يحدث:

- أفسح من أمامي الآن!

قذف بالدلو الثاني فخمدت النار ولم يبق منها سوى القليل المتناثر،
فخرج ليملاً الدلو الثالثةً وعاد إلى الغرفة ليطفئ ما تبقى من الحريق،
وفتح النوافذ ليخرج الدخان ويتجدد الهواء... الحمد لله!

- ما الذي حدث يا بني؟

- لا أدري يا أمي، وجدت السبرتاية على الرخامة فاستخدمتها لعمل
فجائ من القهوة، ثم اكتشفت بعد أن أشعلتها أنها في حاجة إلى زوادة،
فنفخت فيها فأطفأتها وأحضرتك السبرتو وبمجرد ما بدأت التزويد حتى
اشتعلت وأحدثت صوتًا غريبًا فأصابني الذعر وألقيت زجاجة السبرتو
وحدث ما حدث.

- الله يهديك! يا بني أنا تركتها على الرخامة لأتذكر أن أزودها بالسبرتو قبل أن أعيدها للدولاب، لماذا لم تسأل طالما لم تجدها مكانها؟!
قطع عثمان كلامها حينما وجد غطاء الفتيل بجوار السبرتاية:
- لحظات يا كوثر: هل تقول أنك زودتها بغير أن تضع هذا الغطاء فوق الفتيل؟

- هاه؟ نعم؛ هذا ما حدث.

فاشتاط والده غضبًا:

- نعم! هل يوجد عاقل يفعل ما فعلت! أنت عندما تنفخ في الفتيل لتطفئه يظل الجزء السفلي المغموس في السبرتو مشتعلًا، ولذلك لا بد أن تكتمه بالغطاء. طبيعي عندما تقوم بتزويده بهذه الطريقة يشتعل مجددًا وبقوة. ما هذا التهريج؟ كنت ستسبب في كارثة!
- صراحة لم أكن أعرف هذه المعلومة. عندك حق يا أبي، كم أنا أحمق، الحمد لله أنه ستر.

- أنت أحمق ومستفز!

أوقدت أمه ضوء الغرفة لتُصدَم من هول المنظر، ثم لمحت ذاك الفنجان على المكتب فازدادت غضبًا، واستدارت لتأخذ دورها في تهزيق تميم، لكن ما أن نظرت إلى وجهه في الضوء صرخت:

- يا ستيه يا رب! ما الذي أصابك!

- ماذا؟!!

هرع إلى المرأة وتفحص وجهه فوجد رموشه ومقدمة شعر رأسه قد احترقتا.

- يا ربي ما هذا! لا تقلقي يا أمي، الحمد لله على كل حال.

عاد كريم من الدرس للتو، ففتح باب الشقة ليجد سحابة دخان في استقباله، فظن للوهلة الأولى أنه شيء محترق في الفرن، دخل المطبخ فلم يجد شيئاً، ووجد والديه وميماً مجتمعين في غرفته، فأقبل عليهم وهاله المنظر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سريري! ما هذا يا تميم؟!

- أبداً، كنت أفكر في علاج لكثرة نومك وصوت شخيرك المزعج فرأيت أن أشعل النار في السرير!

لم يئنهُ الكلمة حتى استقبل علبة المناديل في وجهه:

- أتَهْزَأُ يا ابن الـ***!

- إحم، آسف يا بابا.

لم يتمكن تميم وكريم من دخول الغرفة هذه الليلة بسبب الدخان ورائحة الحريق، فتركا النافذة مفتوحة وأغلقا باب الغرفة، وافترشا الأرض في الصالة.

- منك لله يا أخي!

- اصمت يا كريم، لا أتحملك أنت الآخر، سأتركك تستخدم سريري وأنا سأنام على الأرض لحين شراء مرتبة جديدة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

احمد الله ونَم!

يا إلهي... كلارا!!

استيقظ تيم في الصباح على صوت خبط قوي؛ فقد اعتاد والده على إغلاق باب الشقة بشدة كلما ذهب أو عاد إلى المنزل. أتبع هذا الخبط ضجيج في المطبخ القريب من الصالة؛ تقريع أكواب وأطباق ومياه منهمة. نظر في الساعة فوجدها لا تزال السابعة والنصف:

- ياه يا أمي!

دخل عليها المطبخ والنعاس يغلبه:

- هل ضاق الوقت يا أمي لغسل المواعين في هذا الوقت من الصباح؟

فأدارت وجهها تجاهه وقالت له بامتعاض شديد:

- وهل قال لك أحد أن تنام في الصالة؟ وكيف الحال وأنتم جميعًا

تنتهون من عشائكم وتلقون الأطباق والأكواب في كل مكان وأنا أقوم

بجمعها وغسلها وكأني خادمة المنزل، حتى أبوك يـ...

- حسنًا حسنًا يا أمي، لك الحق، صباح الخير.

- شيء من الخجل!

- حاضر. صحيح يا أمي، أود أن أسألك سؤالًا مهمًا جدًّا وأرجو أن

يتسع صدرك له.

- سأحاول إذا لم تُثر أعصابي كعادتك أنت وأخوك.

- ما رأيك في الزواج من أجنبية؟

- ولمَ هذا السؤال في الصباح الباكر؟

- أبدًا، سؤال بدر إلى ذهني لا أكثر من ذلك. من حيث المبدأ، ما

رأيك؟

- الأجنب تختلف عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم عنّا كثيراً، لكن لا أرى هناك ما يمنع طالما هي عفيفة وأخلاقها حسنة.

- حتى لو كانت غير مسلمة؟

- تميم! ماذا تريد بالضبط؟!

- لا شيء يا أمي، فقط أردت معك وأحب أن أعرف وجهة نظرك، لي صديق قد يفعل ذلك قريباً.

- وما الذي يضطره لذلك؟ عموماً لقد سمعت منذ وقت من أحد شيوخ الأزهر في برنامج تليفزيوني أن الأمر مباح طالما هي عفيفة وأخلاقها حسنة كما قلت لك.

- وما رأي أبي في هذا الأمر؟

- وما دخل أبيك بشأن صاحبك؟! لا أدري.

- لا تدري تماماً؟

- تميم!

- حسناً حسناً يا أمي، صباح الخير.

لم يدقق تميم كثيراً في معرفة رأي أبيه لثقته بأنه متفتح الذهن ولا يدقق في تفاصيل الأمور، على عكس أمه، فأنصرف إلى غرفته ليتأملها في نور الصباح، فحزن كثيراً للمنظر ولرائحة الغرفة، فأخذ ملابسه المبخرة برائحة الدخان ودخل إلى الحمام ليبلّي نداء الطبيعة، وأطال النظر في المرأة:

- ماذا سأفعل في هذا المنظر؟ الأمر لا يتحمل فضول واستظراف الجيران وزملاء العمل.

عاد تميم إلى الصالة ليحضر هاتفه، وكان أخوه لا يزال مفترشًا الأرض في نوم عميق يغبطه تميم عليه، فانتبه تميم إلى رأس كريم الذي يحلقه دائماً بماكينته الكهربائية الخاصة؛ فبشرته السمراء ورأسه المستديرة وشعره الخشن يساعده كثيرًا على ذلك، واشترى الماكينة توفيرًا لوقت وثمان الذهاب لصالح الحلاق.

لم يأخذ الأمر كثير وقت في التفكير حتى قرر تميم أن يستعين بماكينته أخيه ليريح دماغه من هذا المواقف المتوقعة؛ فدخل الحمام وحلق رأسه ونظف الماكينة جيدًا بالسائل المطهر قبل وبعد الاستخدام، واستعان بكاميرا الهاتف ليضبط قفاه. ثم قام بالاستحمام سريعًا وارتدى ملابسه في الحمام ونزل. لمح أمه تدخل الحمام من خلفه وهو يفتح باب الشقة، فخرج وأغلق الباب سريعًا، ليسمع صوتها من وراء الباب وهي تصرخ:
- ما كل هذا الشعر الذي يسد الحوض؟ يا كريم!!

يمضي تميم يومًا هادئًا في العمل، لكنه لا يسلم من نظرات الزميلات المختلصة وأسئلة زملاء الفضولية والكليشيات المحفوظة:

- ما هذا؟ هل قمت بمعاكسة ابنة الحلاق؟ هاهاهاها.

- خيرًا؟ هل استُدعيت للجيش؟

- حمد الله على سلامتك؟ كنت في عمرة أم ماذا؟

وكان يحيب الجميع ببرود:

- أبدًا، هذا نيولوك... يا إلهي متى ينقضي هذا اليوم؟!

في تمام الخامسة، ينصرف تميم إلى المنزل. يفتح الباب ويسلم على أمه

الجالسة في الصالة تحكي لأختها في الهاتف ما حدث بالأمس. دخل إلى
الغرفة وغير ملبسه ثم دخل المطبخ فوجد سبانخ وأرزًا:

- أستغفر الله!

دخل غرفته ليغير ملبسه ثم عاد لأمه التي أنهت المكالمة، فبادرها

بسؤالها:

- ألا يوجد طعام غير السبانخ؟

- لا، هيا اذهب إلى المطبخ وكل سريعًا لكي ننزل، أراك بدلت ثيابك؟

- ننزل إلى أين؟ أنا متعب!

- نذهب لنشترى مرتبة جديدة بدلًا من التي أحرقتها بالأمس.

- وأين أبي؟

- ذهب مع عمك جلال في مشوار.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حاضر، اتركيني إذن أسترح قليلًا.

- لا وقت للراحة، المتجر الذي سنذهب إليه يغلق باكراً، وأنا أيضًا

لا أريد التأخر لأني متعبة منذ الصباح وأريد أن أنام، سأعد لك الطعام

لتأكله سريعًا ثم نتحرك.

- وماذا عن كلارا؟

- نعم؟

- أبدًا لا شيء، لا شيء يا أمي، حاضر.

ارتدى تميم ملبسه التي لا زالت ملقاة على السرير، ثم فتح اللابتوب

ليكتب رسالة اعتذار إلى كلارا، وجلس أمامه يأكل السبانخ في صمت،

مُمَيًّا نفسه بالطعام الروسي الذي لا يدري عنه شيئًا.

دخلت عليه أمه وقد استعدت للنزول، فوجدته لا يزال جالسًا منهمكًا في الكتابة، فقالت له في غضب:

- يا بني لا وقت للإنترنت وهذه المحادثات الفارغة، الرحمة يا بارد!

- ليست فارغة والله يا أمي بل هي رسالة مهمة جدًا أكتبها، فقط أعطيني ثلاث دقائق.

- والله ولا دقيقة، هيا قم حاليًا! ولعلمك هذه المرتبة سأدفعها من فلوس الملابس الجديدة التي كنت أنوي إعطاءها لك هذا الشهر، إن أردت الشراء فاشتر من راتبك لعلك تشعر بقليل مما نشعر به.

- لكن يا أمي كنت أنتوي شراء مستلزمات للسيارة من الراتب... لكن حاضر!

عاد تميم وأمه إلى المنزل في تمام التاسعة، وقد دفعت ثمن مرتبة ووسائد جديدة، واشترت كذلك وسائد لسيرها بدلًا من الوسائد القطنية القديمة التي تسبب لها الصداع وآلام الرقبة أثناء النوم، واتفقت مع البائع على شحنهم إلى المنزل باكراً في الصباح. ليلة أخرى سيقضيها تميم على الأرض، لا يطيق النوم إلى جوار أخيه كثير التقلب والحركة:
- لله الأمر!

دخلت أمه إلى غرفتها لتؤدي ورد التليفون اليومي، وتفقد تميم غرفته فوجدها قد تهوّت جيداً وأصبحت صالحة للاستخدام، فدخل إلى المطبخ لإعداد كوبٍ من الشاي ليهنأ بسريره قبل عودة كريم. فتح الماسنجر وكان حساب كلارا في حالة Busy، فأرسل لها وكزة Nudge فلم تجبه،

فكتب رسالة اعتذار طويلة يحكي ما حدث وكيف أن الأمر خارج تمامًا عن إرادته، فأرسلها وجلس يترقَّب.

بعد عشر دقائق لاحظ أنها بدأت تكتب، ليصله منها الرد:

- أبدًا يا هميم لا عليك، على كل حال بالأمس كنت موجودة لأبحث عن شيء ما في الإنترنت، فلا تنزعج. وبخصوص ما تعرضت له فهو في غاية الخطورة وحمدًا لله أنه مرَّ بخير.

أطال هميم النظر في الرسالة وقال: ما هذا البرود الروسي القاتل! يبدو أن شيئًا لم يخطر ببالها قط، أفأكمل المحاولة أم أصرف نظرًا؟ ظل هكذا متحير للحظات حتى حسمت كلارا المسألة من طرفها وكتبت له:

- هل الوقت مناسب الآن؟

فأجابها بغير تردد:

- مناسب جدًا.

- وهو مناسب لي كذلك، أنا معك.

زاد قلب هميم من خفقانه وسرت رعشة في جسده، لم يدرِ ماذا يقول، مُحي من ذهنه كل السيناريو الذي أعده مسبقًا وظل يلقنه لنفسه طوال اليوم والليل:

- يا ربي لقد نسيت كل شيء! كانت مقدمة رائعة ومدخلًا خاطفًا وقويًا،

ماذا أكتب الآن؟ لقد انتهى الأمر!

طال انتظار كلارا، فكتبت:

- أين ذهبت؟ هل أنت بخير؟

- ممّ تتخوفين إذن؟

- صراحة لا أدري.

- مؤكّد أنّك ترغبين في وقتٍ كافٍ للتفكير؟ كنت أحتفظ بكلام كثير

برأسي، ونسيتته كله الآن، وليس لديّ شيء يمكن أن أضيفه سوى...

- ???

- سوى أنّ قلبي تعلق بك.

-

- أتفهم موقفك، خذي من الوقت ما يكفيك، وسأنتظر.

- حسنًا تميم، أعدك بالرد بكل صراحة.

ما أنّ قرأ تميم هذا الوعد حتى قفز على السرير وصاح فرحًا كأن

المنتخب أحرز هدف الفوز في الدقيقة الأخيرة من المباراة. ففتح أبوه

باب الغرفة وكان عائدًا لتوّه من بعض المشاوير، فصاح به:

- ماذا بك يا ابن المجنونة؟

- أبدًا يا أبي، فرح قليلًا.

- ربنا يفرحك أكثر وأكثر ويهديك.

ثم استدار ليغادر الغرفة فوجد كوثر تقف على الباب مضيئةً عينيها،

فقال لها بارتباك:

- أهلاً حبيبتي!

أنهت كلارا المحادثة مع تميم، والأفكار والمشاعر تتضارب في ذهنها

كالأمواج العاتية؛ بين شعور عميق بالفرحة، يخالجه تخوف من عدة أمور:

- هل هو صادق في حبه أم يتزين وله في الارتباط بي مآرب أخرى؟
- هل سأرتبط بعربي، مسلم؟
- هل سيلزمني بالإسلام؟ أم سينتج لي الحرية في الاختيار؟
- هل ينوي العيش في روسيا أم مصر؟
- هل سأترك أمي وحيدة أم ستأتي للعيش معي؟
- هل الاختلاف في الدين واللغة والعادات صحي لإنجاب وتربية الأبناء؟
- الصداع سيفتك برأسي!
- دخلت إلى مارجاريتها الغرفة ويبدو عليها التوتر، فسألتها:
- خيراً يا ابنتي، ماذا بك؟
- أبداً يا أمي، التوتر الذي ينتابني بين الحين والآخر، أريد حبةً من أقراص المهدئ الذي تستخدمينه كي أستطيع النوم.
- لا بأس يا حبيبتي، خذي حبةً واحدة من الدرج، وادخلي إلى فراشك وأطفئي الأنوار. اصري في تفكيرك عن أي شيء يؤرقه.
- سأحاول يا أمي، تصبحين على خير.

اختفت كلارا عن النظر تماماً، خمسة أيام لم يزل القلق فيها عن قلب تميم، أرسل لها رسائل على الماسنجر بحالته الـ «Offline»، فلم تجبه. أرسل إليها إيميل ليطمئن عليها، فلم يتلقَ أي رد. كان مجبراً على الانتظار وتهيئة النفس للرضا بما هو مقدرٌ ومكتوب.

في اليوم السادس ظهرت كلارا على الماسنجر للحظات في حالة Away ثم اختفت فور أن ظهر لها، فأرسل لها في الحال:

- كلارا! كيف حالك؟ أرجوك أن تردي على رسالتي، فأنا قلق جداً.

فجاءه الرد بعدها بدقائق:

- كيف حالك يا تميم، لا تقلق أنا بخير.

- إذن لمَ كل هذا الغياب؟ لماذا لا تجيبين على رسائلي؟ ألم تعديني بالرد؟

- نعم؛ أنا وعدتك، لكنني صراحة مضطربة جداً وحتى الآن لا أدري

كيف أجيّب. الأمر ليس بهذه السهولة.

- أعلم أنه ليس بهذه السهولة كلارا، وأعلم أن هناك مخوفات كثيرة

تدور في رأسك وترهق ذهنك، لكن ما الإشكال في أن تحدثيني عن

مخاوفك بصراحة وبغير حرج؟

- لا أظن أن ما يدور في ذهني يصلح للمناقشة.

- كيف ذلك؟!

-

- هل أستنتج من موقفك أن الأمر غير مرفوض من حيث المبدأ؟

-

- هل تحدثت مع مارجاريتا؟

- لا.

- هل من الممكن أن تعترض بسبب اختلاف الديانة؟

- لست متأكدة من ذلك، لكن لا أظن أن هذا سيكون محور النقاش؛

أمي تخاف عليّ جداً وأكثر ما يهتمها في الشخص الذي يرتبط بي أن يحافظ

عليّ وعلى أبنائي وأن لا يخونني؛ فشاب كثير هنا لا يتحملون مسؤولية

الزواج ولا نفقات البيت والأولاد بل ولا نفقاتهم الشخصية، ويطالبون

الزوجة بالعمل والشقاء لأجل تدبير ذلك، وكثيراً ما ينتهي الأمر بالطلاق وتدمير حياة الفتاة والحكم عليها بالعيش كالأم العزباء. لذلك فهي اعترضت كثيراً على هذا الشاب الذي حكيت لك عنه قبل ذلك، وظنّها فيه كان في محله.

- كلارا هذه السيرة تستفزني فأرجو أن لا تذكرها لي مرة أخرى.

- حسناً، كان فقط من باب التوضيح لا أكثر.

- المهم...

- نعم؛ فكما قلت لك، لا أظن أن اختلاف الديانة سيكون سبباً جوهرياً في الرفض، فأمي لها أصدقاء ومعارف من جيراننا مسلمين، وتعرف كيف يحافظ المتدين منهم على زوجته وأولاده.

- إذن ماذا من الممكن أن يكون سبب اعتراضها؟

- لا أدري يا تميم على وجه التحديد، لكن المؤكد أنها ستعترض على سفري، لأنها لا تحب فراقي طرفة عين، أم أنك تنوي الانتقال للعيش في روسيا؟ فأنت لم توضح.

- لا أظن ذلك، فلديّ مشاغي هنا لا أستطيع تركها بحال؛ نحن عائلة ميسورة الحال لله الحمد، أتقاضى راتباً لا بأس به من عملي، إضافة إلى أن أبي يعتمد عليّ في إدارة تجارته. ولو على مارجاريتا فالأمر بسيط جداً، تأتي للعيش معنا في بيتنا في غرفة خاصة. أنا أحبها وأعدك أن أعاملها تماماً كأمي.

- حقاً؟! أنت ترحب بهذا؟

- نعم؛ بالتأكيد، ولم لا؟

- هذا موقف نبيل منك يا تميم، رغم أنني لا أظنها ستقبله. في العموم أعدك أنني سأفاتها في الأمر عندما أجد مزاجها صافياً، وسأخبرك بالرأي النهائي بكل صراحة.

- نعم؛ أرجوك كلارا، فأشعر أن حياتي كلها قد توقفت انتظاراً لقرارك. ورجاءً احرصي على اختيار الوقت المناسب لمفاتيحة مارجاريتا.
- نعم؛ أكيد، لا تقلق.

موسكو، الأربعاء 8 مارس 2006

كانت مارجاريتا على الدوام عكرة المزاج جرّاء ما قاست في حياتها، لا تصفو ضحكتها إلا قليلاً، لم تعد تستطيع التخلي عن دواء الاكتئاب المداومة على استخدامه منذ سنين. في هذا اليوم عادت من صالون التجميل بعد جلسة تصفيف اختارت فيها لوناً وقصة جديدة لشعرها أتبعتهما بجلسة مساج، فعادت منها سعيدة ومنتعشة. لم تفوّت كلارا الفرصة الذهبية:

- ما هذا الذي أراه يا أمي؟ نضرة ورائعة، «لؤلؤة» حقاً كما هو اسمك: «مارجاريتا».

- أشكرك يا حبيبتي. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً، لكنني سعيدة به.
هل تناولتِ غداءك؟

- لا يا أمي كنت في انتظارك.

- حسناً، فأنا جائعة جداً.

- سأعد أنا الغداء يا أمي.

- هذا فعلٌ غريب عليّ كلارا لكنني سعيدة به على كل حال! حسناً
سأنتظرك في الغرفة.

دخلت كلارا المطبخ لطهي ستروجونوف الدجاج مع الأرز الأبيض، ثم أعدت المائدة ودعت والدتها.

على الغداء سألتها:

- ما رأيك في الطعام يا أمي؟

- شهى يا كلارا، أنا مستمتعة به.

- هل أصلح بذلك أن أكون ربّة منزل؟

- مؤكّد تصلحين حبيبتى، أتمنى ذلك بفارغ الصبر، لا تدرين كيف

أشتاق لرؤية أحفاد لي يشبهون فيكتور.

- أمي، هل تتذكرين تميمًا؟ الشاب المصري الذي تعرفنا به في شرم

الشيخ العام الماضي؟

- نعم؛ أتذكره، ماذا به؟

- يعرض عليّ الزواج؟

- في روسيا؟

- لا يا أمي، في مصر.

- في مصر! وهل تتركيني أعيش هنا وحيدة كلارا؟

- قطعًا أنا لا أرغب في ذلك. لكنه سؤال يا أمي؛ هل أستنتج من

كلامك أنك توافقين على تميم والإشكال لديك في مكان العيش؟

ارتبكت مارجاريتا من السؤال المفاجئ وقالت:

- أنا لم أقل ذلك؛ أينعم هو شاب يبدو عليه الأمانة والاحترام، وشعرت

بإعجابه بك وقتما كنا في شرم الشيخ وكنتم شعوري لكيلا لا ألقت نظرك

أو أوثر عليك، لأن أمر الزواج خاص بك في النهاية، وما يعنيني فقط هو

المحافظة والاطمئنان عليك، فأنا لا أملك في هذه الدنيا غيرك، فهل يكون جزائي في النهاية أن ترتبني بشاب من بلد أخرى لتسافري معه وتتركيني أعيش وحيدة يقتلني الحزن والاكتئاب؟

- كما قلت لك فأنا لا أرغب في ذلك يا أمي، ولكن تميم عمله مستقر في بلده، فلماذا يترك هذا ويأتي ليغامر بالعيش هنا ويبدأ من الصفر مجدداً؟ بالمناسبة هو يبدي ترحابه الشديد بأن تنتقلي للعيش معنا في مصر.

- لا أفعل هذا أبداً!

- لماذا يا أمي؟

- لقد كبرت في السن وبلغت السابعة والأربعين، وهنا حياتي وذكرايتي ومصدر رزقي، كيف أنتقل بعد هذا العمر لأبدأ حياة جديدة في بلد جديد، وأن أحمل زوجك الشاب تكاليف معيشتي، لا لا، أنا لا أقبل هذا ولم أعتد عليه قط.

- أنت هكذا تصعبين عليّ الأمر كثيراً يا أمي، فما العمل إذن؟

- هل تحبينه؟

- نعم يا أمي.

- وهل ظني أنا في تميم صحيح؟

- نعم يا أمي، هو شاب طيب ويحبني.

- إذن يا حبيبتي لا أستطيع أن أقف في طريق سعادتك، فهذه أمانة أمّني إياها والدك فيكتور، ويجب عليّ أن أتحمل تبعات هذه الوصية. لكن لو لي طلب منك فهو أن لا تنسيني كلارا، وأنا هنا لن أعدم من صديق.

- وهل يعقل أن أنساك يا أمي؟!

شكرتها كلارا وارتمت في حضنها طويلاً، ثم أنهيا طعامهما وقامت كلارا لغسل الصحون ثم لتزف البشرية إلى تميم، بينما دخلت مارجاريتا غرفتها وأحكمت غلق الباب، وأجهشت في البكاء.

- وافقت؟

- نعم تميم.

- حقاً؟ لا أصدق ذلك! لك الحمد يا رب، كيف أصف لك سعادتي

الآن؟!

- كما قلت لك، كل تفكيرها كان منصباً على فكرة السفر والعيش

بعيداً عنها، وأنا لا أخفي عليك تخوفي من هذا الأمر، لا أدري ما العمل؟

- هل عرضت عليها أن تنتقل للعيش معنا؟

- نعم؛ لكنها رفضت.

- إذن، اتركها بعض الوقت لتعايش قسوة الوحدة، وهي نفسها

ستطلب منك العيش معنا في مصر، وإن لم تطلب فجددي أنت لها العرض

لاحقاً. حينها سنكون على الرحب والسعة.

- هل تتوقع ذلك؟

- بل أنا متأكد. والآن لدي اقتراح للخطوة التالية.

- ما هو؟

- ما رأيك في إقناع مارجاريتا بقضاء إجازة الصيف هذا العام أيضاً في

شم الشيخ، وأنا أقنع والديّ بذلك، وملتقي هناك وتكون فرصة لتتعارفوا

جميعاً.

- من حسن الحظ أن أمي تفكر بالفعل في قضاء الإجازة في مصر هذا العام أيضاً كما سبق أن وعدتك، لكنها تفكر بالسفر إلى الغردقة.
- رائع! يبقى الإشكال لديّ الآن هو إقناع والديّ بالغردقة.
- ولمَ ذلك؟

- هما لا يحبانها كثيراً، في رأيهما هي ليست بقدر جمال شرم الشيخ التي يعتادان السفر إليها. لكن لا عليك، سيكون الأمر سهلاً بإذن الله.
- أتمنى ذلك.
- حقاً كلارا؟
- حقاً تميم.

استيقظ تميم مبكراً ليفتح أمه في الأمر، كانت تجلس في الصالة تمسك بمصحفها تقرأ وردها اليومي من القرآن:
- صباح الخير يا أمي، كيف حالك؟
- صباح الخير يا بني، أنا بخير الحمد لله، فقط بعض الصداع سيذهب لحاله بإذن الله.
- شفاك الله وعافاك يا أمي. يبدو أن التوقيت غير مناسب للكلام، إذن سأقوم الآن لأتجهز للعمل ونتحدث في وقت لاحق.
- أبداً يا تميم، لا تشغل بالك بالصداع، خيراً ماذا بك؟
- لا شيء يا أمي، أنا بخير الحمد لله. أمي، هل تذكرين صديقي الذي يريد الزواج من أجنبية؟
- نعم؛ ماذا به، هل تزوجها؟

- ليس بعد، ولكنني أرغب في أن أفعل مثله.
- ماذا تقصد يا تميم؟ هل تريد الزواج من أجنبية؟
- نعم يا أمي.
- من تكون؟
- هي فتاة روسية تعرفت عليها في رحلة شرم الشيخ.
- روسية في شرم الشيخ؟! وماذا فعلتما معًا؟ انطق حالًا!
- لم نفعل شيئًا يا أمي! لماذا دائمًا تفكيرك يشط هكذا؟ يا أمي هي فتاة جميلة ومهذبة، ولم تكن أمها تفارقها لحظة، ولم نختلِ ببعض أبدًا، بل لم نتكلم إلا قليلًا جدًّا، فقط بعض الدردشة الخفيفة بيني وبينها هي وأمها، ولم أراها إلا خلال يومين فقط، ثم راسلتها وتكلمنا وتعرفت بها أكثر على الإنترنت، وأعجبت بشخصيتها وتعلق قلبي بها وأشعر الآن أنها فتاة أحلامي.
- وماذا تركت لأخيك الصغير الطائش؟ كيف يكتمل زواج بأفعال المراهقين تلك؟
- يا أمي أنا رأيتها وانطباعي عنها جيد، وهي تبادلني نفس الشعور، وليس لديها إشكال في الزواج مني، فأين المراهقة في ذلك؟
- معقول! أنت أخذت قرارك واتفقت معها ورأيي أنا ووالدك بالنسبة لك هو مجرد تحصيل حاصل؟!!
- أبدًا والله يا أمي! كل الفكرة هو أنني جسست نبضك منذ أيام بسؤالي عن رأيك بشكل عام، ولم أجد ممانعة في المبدأ. بعد ذلك لم أجد وقتًا مناسبًا للسؤال بشكل جاد. أو ربما أخطأت وتخوفت منك. لا أدري!

- هل تساومني يا تميم؟ نعم؟
- أن تمهدي الأمر لوالدي حتى أراه في المساء.
- ربك ييسر الحال. أستحلفك بالله: أنت لم تفعل معها أي خطأ؟
- أبدًا يا أمي أقسم لك بالله، هل تظنين بي ذلك.
- لا يا بني، فقط ليطمئن قلبي.
- اطمئني يا أمي. أسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا ومن همزات الشياطين.
- آمين يا رب.
- سأقوم الآن لأغير ملابسي وأستعد للنزول.
- حسنًا يا بني.

- أضى تميم يومه وعاد إلى المنزل في الخامسة، فوجد والديه جالسين يظهر عليهما التحدث في أمر جاد، فسلم عليهما، فوجد أبوه يستقبله بابتسامة عريضة قائلاً له:
- أهلاً بك يا دنجوان العصر والزمان.
 - أهلاً يا أبي، كيف حالك.
 - بخير الحمد لله، أنت كيف حالك.
 - الحمد لله. هل أمي أخبرتك بشيء؟
 - نعم؛ كانت تحكي لي الآن قبل وصولك.
 - وما قولك يا أبي؟

- انظر يا بني: أنا أثق بعقلك وأخلاقك وذوقك العام، ولذلك فأنا أعلم أنك تتكلم في اختيار شريكة حياة لا في أحلام مراهقين، فلن أسألك عن الفتاة شيئاً غير أنني أؤكد على وعدك لأمك بأن تدبر لنا لقاءً قبل الارتباط.

- أسعى في ذلك والله يا أبي.

- جميل، فقط عندي سؤالان.

- وما هما يا أبي؟

- هل تنوي بزواجك من أجنبية أن تهجر وتتركنا؟ أنت تعلم أنك ذراعي الأيمن ولا أستطيع التخلي عنك في عملي الذي أأمل أن تتولى إدارته من بعدي.

- بعد عمر طويل يا أبي، أدام الله عليك الصحة والعافية. لا يا أبي لم أنو هذا، بل أسعى في إقناعها بأن تأتي هي لتعيش معنا.

- طمأنتني بارك الله فيك. إذن في هذه الحالة ستكون الفتاة في الحفظ والصون وسنحملها فوق الرؤوس.

- أنا واثق من ذلك يا أبي. ما الأمر الثاني؟

- نعم؛ الأمر الثاني هو كيف تريد الارتباط بها الآن وشقتك التي حجزناها لك العام الماضي لن نستلمها قبل بداية 2007؟

- صراحة يا أبي لم أفكر في هذا الأمر، لكن لنمهل هذه المسألة لوقتها بإذن الله، فلا أظنها ستكون عقبة كبيرة بإذن الله.

- آخر شيء، فأنصحك بالاستخارة قبل أي قرار، وأنت لا تحتاج لتوصية بهذا الأمر.

- أكيد يا أبي، أنا مستخير وأدعو الله كثيراً، وسيوفقني لما فيه الخير بإذنه تعالى.

- بإذن الله تعالى.

الغردقة، الاثنين 8 مايو 2006، الثانية ظهرًا

تمكن تميم من إقناع والديه بالرحلة إلى الغردقة. سافر معهم كريم على ماض لكثرة إلحاح والديه بدعوى مشاركتهم الرحلة. في حقيقة الأمر كانوا يخشون تركه وحده في المنزل، أو حتى مع جدته، لعلمهم بطيشه وتهوره.

فور وصولهم المنتجع واستلامهم الغرفة، اتصل تميم بموظف الاستقبال ليستعلم عن رقم غرفة مارجاريتا ديميتري، والتي وصلت مع الفوج السياحي الروسي قبله بيوم، فأجابه بأنها الغرفة 407، فاتصل بها تميم وأجابته كلارا:

- كلارا! أنا هنا؟

- تميم! أخيراً وصلت، لوهلة ظننت أنك لن تفعل، وأنها ستكون صدمة العمر.

- هل هذا ظنك في يا كلارا!؟

- أبدًا، فقط لحظة قلق، وأنت عهدتني صريحة معك، اغتممت؟ أنا فرحة جدًا بمجيئك.

- لستِ بأسعد مني، كيف حالك كلارا؟ وكيف حال مارجاريتا؟

- نحن بخير حال، وأنت؟

- كل الأمور على ما يرام.

- متى وصلت؟

- وصلت هنا منذ نصف ساعة فقط، واتصلت بك فور استلامي

الغرفة؟ أشتاق إليك كثيراً لو تعلمين. أشعر كأني أحلم!

ضحكت كلارا ضحكة رقيقة ولم تجب، فأردف تميم:

- هل من الممكن أن أراك الآن؟

- لحظات أسأل أمي... سألتها وهي تُفضّل أن نلتقي جميعاً في اللوبي

في الثامنة والنصف ونذهب لتناول العشاء معاً في المطعم. الآن يمكنك أخذ

قسط من الراحة.

- ولمّ هذه السخافة، لا أستطيع النوم الآن!

- اعذري يا تميم، هذه رغبة مارجاريتا.

- حسناً! تحت أمر مارجاريتا. على الموعد بإذن الله.

- على الموعد.

كانت أسرة تميم في اللوبي في الساعة الثامنة والنصف بالتمام. عند

رؤيتهما من بعيد سرح تميم بخياله وشعر وكأنه يقبل مسرعاً على كلارا

فيحتضنها ويحملها ويدور بها كما في الأفلام، لكنه سرعان ما تنبّه وتذكر

أن هذا لا يحلّ له، فاكتفى بمصافحة خفيفة مصحوبة بكلمة:

- أنا سعيد.

لتجيبه كلارا:

- وأنا كذلك.

فلما جاء الدور على مارجاريتا فوجئ تميم بمصافحتها له بحرارة وتقبيلها له على وجنتيه، فضحك كريم وسلّم عليهما بابتسامة عريضة ثم مال إلى تميم وهمس له في أذنه: «يابن اللعيبة!».

صافحهما والداه بحفاوة كبيرة خاصة والدته التي بدا لتميم أنها أعجبت كثيراً بجمال كلارا ورقّتها، حتى أنها احتضنتها طويلاً ثم أمسكت بيدها ورافقتها حتى دخول المطعم.

كان المطعم مزدحمًا بالنزلاء، فدارت أعينهم في المكان تبحث عن طاولة كبيرة تسعهم هم الستة، فأشار تميم إلى طاولتين متلاصقتين في أقصى اليمين همّ الجالسون عليهما بالقيام، ودفع كريمًا ليسرع الخطى ليحجزها لهم، في الوقت الذي يقومون فيه بإعداد أطباقهم من البوفيه. كانوا جميعًا جوعى، فأخذوا ما طاب لهم من الطعام ثم جلسوا على الطاولة، ليقوم كريم بعد ذلك لإعداد طبقه.

تجاذب الأهل أطراف الحديث بانسجام، وكان تميم يحاول التظاهر بعدم التوتر ولكن نبرة صوته المهزوزة الخافتة كانت تكشف ارتبائه كلما تكلم وطلب منه المستمع إعادة الكلام لعدم اتضاحه.

انتهى تميم من طعامه قبلهم ثم استأذّنهم في الذهاب إلى الحمام، وسرعان ما عاد بعد دقيقة واحدة فقط. بعد انتهاء الجميع من تناول الطعام، همّوا بالقيام لأخذ بعض الحلوى، فأسرع إليهم نادل ليرفع أطباق الطعام عن الطاولة، ثم باغتهم نادل آخر بتورته شيكولاتة صغيرة يضعها أمامهم، مكتوب عليها بالإنجليزية: «أحبك كلارا.. تميم»، ثم وقف تميم وأخرج من جيبه خاتمًا رقيقًا ليهدئها إياه.

شهقت كلارا ووضعت يدها على فمها من الفرحة، وذرفت عيناها بالدموع، فصفق الجميع بسعادة بالغة، وشاركهم بعض الجلوس المحيطين بالتصفيق، وقام بعض السائحين بالتصوير والتهنئة. احتضنت مارجاريتا كلارا وقبّلت رأسها ثم ربتت على كتف تميم في فرح وامتنان، فقالت والدة تميم مارجاريتا:

- لا تخشي على كلارا أي شيء، تمنيت كثيراً أن ألد بنتاً جميلة مثلها، وها قد استجاب الله لي، فلا تخافي، هي في الحفظ والصون.
تأثرت مارجاريتا كثيراً لكلماتها واحتضنتها ثم قالت لها:
- أنا واثقة من ذلك يا كوثر، فأنت من الآن في مقام أمها، والأستاذ عثمان في مقام والدها فيكتور.

- بالطبع عزيزتي، ليس في ذلك أدنى شك.

موسكو، يونيو 2007

مرَّ العام بسلام، وتحدد صيف 2007 لإتمام الزواج ويكون تميم قد تمكن من تجهيز بيت الزوجية لاستقبال كلارا. اتفقا على إتمام إجراءات الزواج في روسيا، ومع اقتراب الموعد المحدد أرسلت كلارا لتميم فيزا للزيارة.

اتفق معها تميم على إتمام إجراءات الزواج الشرعية أولاً؛ فبعد أن وصل إلى موسكو وأراح بدنه وتزين وتهيأ في غرفة الفندق الذي مكث فيه ليلتين بمفرده، ذهب بكلارا إلى المسجد الجامع، مسجد كاتدرائية موسكو القريب من منزلها، لإشهار الزواج وإتمامه بحضور المأذون، ثم توجهها معًا لمكتب السجل المدني (زاجس) ZAGS التابعة له كلارا لإتمام الإجراءات القانونية وتقديم الأوراق اللازمة لذلك. من حظ تميم أن استلام الأوراق معتمدة من الزاجس يتطلب 32 يومًا بالتمام، ولم يكن في مقدوره ولا من المناسب له مغادرة روسيا ثم العودة مجددًا بعد شهر لاستلامها، فقررا مسبقًا قضاء شهر غسل طويل في روسيا في استضافة مارجاريتا التي أظهرت كرمًا واحتفاءً كبيرين، وبراعة في طهي ما يتميز به المطبخ الأوكراني والروسي، وكانت تتحرى شراء اللحوم الحلال احترامًا لشريعته.

أعدت كلارا لتمييم برنامجًا سياحيًا مميزًا على مدار الشهر لزيارة معالم روسيا الشهيرة؛ فزارا قصر الكرملين والساحة الحمراء بمبانيها الأسطورية، والتي تعتبر الميدان المركزي لموسكو، وذهبا إلى مدينة سان بطرسبرج لزيارة قصورها ومتاحفها ومعالمها الفنية العريقة، والتي تعتبر أحد أهم مراكز أوروبا الثقافية، ومن أبرزها متحف الهرميتاج الذي تأسس عام 1764 ويطلق عليه دُرّة متاحف روسيا، والذي يعتبر أحد أكبر متاحف العالم لاحتوائه على أكثر من 3 مليون تحفة فنية، ودخل مجموعة جينيس للأرقام القياسية لاحتوائه على أكبر مجموعة لوحات في العالم. كما ذهب لقضاء ثلاثة أيام في منتجع سوتشي الخلاب على ضفاف البحر الأسود للاستمتاع بطبيعته الساحرة ومناخه العجيب حيث في الإمكان التزلج على مياه البحر الدافئة وعلى الجليد في الجبال الشمالية في نفس اليوم. ثم دعتهما روح المغامرة إلى الانطلاق في رحلة سفاري إلى جبال القوقاز الشاهقة والتوغل في ممراتها الجبلية الضيقة وطرقها المتعرجة المتشعبة ومنحدراتها الخطرة، والمكث لأسبوع بين قراها القديمة والتعرف على عادات وتقاليدها. لتمضي كالعادة الأوقات الجميلة سريعًا، وتأتي اللحظة التي طالما تحاشتها مارجاريتا؛ لحظة الوداع في المطار، لحظة الفراق والألم. انهمرت دموعها وكلارا طويلاً حتى فارقت بينهما البوابة، بعد الوصايا الكثيرة لتمييم وأخذ الوعد بقاء قريب. لتجلس بعد ذلك مارجاريتا في المطار وحيدة تبكي حتى غلبها النوم من التعب. استيقظت بعد ساعة لتجد نفسها جالسة في مكانها ودموعها قد جفت على وجهها، فدخلت الحمام لتغسل وجهها، ثم خرجت لتستقل الأتوبيس لتعود إلى البيت وتغلق عليها والحزن الباب.



القاهرة، السبت 7 يوليو 2007

كان تميم قد جهز بيته الصغير في منطقة النزهة الجديدة المكون من غرفتين وصالة، بمفروشات عصرية حرص على أن تناسب ذوق كلارا المائل إلى هدوء الألوان والبساطة. أتم تجهيزه بالكامل عدا بعض الأشياء البسيطة التي لم يسعفه فيها الوقت قبل السفر، منها صندوق كبير من الورق المقوّى أحضر فيه بعض متعلقاته الخاصة من منزل والده، فانشغل عنه ولم يجد وقتًا لإخراج ما بداخله قبل السفر، فتركه في أحد أركان غرفة المعيشة، حتى عادا من روسيا.

في صباح اليوم التالي من عودتهما، استيقظ تميم من نومه بعد الظهر فلم يجد كلارا بجواره، فقام ليتفقدّها، فوجدها في غرفة المعيشة جاثية بركبتيها على الأرض بجوار الصندوق تعانين ما بداخله بشغف، فابتسم وقال لها:

- أعجبتك هذا؟

- جدًّا جدًّا يا تميم!

- هذه مجموعتي الخاصة من القصص التي أحفظ بها منذ الطفولة؛

في أواخر الثمانينيات كان أبي يصحّني إلى مكتبة دار المعارف بوسط القاهرة،

ليشتري لي القصص المصورة لتان تان وأستريكس وشخصيات ديزني، باللغات الفرنسية والإنجليزية ليساعدني على تعلم اللغات وإتقانها، ولنفس السبب أيضًا ألحقني بمدرسة فرنسية.

- هذا شيء جميل.

ثم انتبّهت كلارا لثلاثة مجلدات في قاع الصندوق، فأخرجت أحدها لتسأله:

- وماذا عن هذه المجلدات الكبيرة القديمة؟

- هذه مجلات ميكي التي كنت أشتريها في التسعينيات من كشك الجرائد المجاور للمنزل، جمعها لي والدي في مجلدات حفاظًا عليها.

ففرّت أوراقه سريعًا ثم وضعته جانبًا واستخرجت المجلدين الآخرين وأمسكت بأحدهما وسألته:

- ولماذا يبدو هذا المجلد أقدم من غيره؟ فصفحاته صفراء وتنبعث منها هذه الرائحة المميزة؟

- هذا كنز ثمين من نفس المجلات لكنها أقدم كثيرًا، يرجع تاريخها إلى عام 1973، وجدتها في متجر الأنتيكات الخاص بجديّ لأمي، والذي لم أزره إلا في هذا اليوم الذي بيع فيه. كنت أبلغ من العمر تسع سنوات، وبسؤال أُمي عرفت أنها كانت تخصها حينما كانت فتاة صغيرة؛ كانت تشتريها وتقرأها في متجر جدّي عندما تذهب معه إلى هناك وتتركها حتى تجمّع منها عدد كبير. في هذا اليوم التقطها والدي من الأرض ونفخ عنها التراب، ثم نسّقها وجمعها في هذا المجلد المقوّى ليحفظها. كان لهذا المجلد سحر ومتعة خاصة في القراءة دون غيره.

- والدك هذا رائع، أنا أحبه.

رسمها لقصص الأطفال وغرس ما تراه مناسباً لهم؟ افتح لي جوجل على اللابتوب.

- حسناً، لكن ما رأيك بعد تناول الإفطار؟

- نعم؛ بالتأكيد، فأنا أيضاً جائعة جداً وأعددت لك إفطاراً شهياً في المطبخ قبل أن تستيقظ؛ والدتك لم تترك شيئاً نحتاج له إلا ملأت به الثلاجة قبل قدومنا، أنا أحبها كثيراً.

- وهي أيضاً تحبك جداً وتوصيني بك وبوالدتك خيراً.

بعد تناولهما إفطاراً من البيض المسلوق والجبن والخضروات الطازجة والمربي والزبد وخبز التوست المحمص، أدّى تميم صلاة الظهر، ثم جلسا ليتناولوا النيسكافيه معاً أمام اللابتوب. كتبت كلارا على جوجل Comics Propaganda، ثم فتحت قسم الصور، لتظهر لهما صور كثيرة لأغلفة قديمة لمجلات مارفل Marvel ودي سي كوميكس DC Comics، من ضمنها صورة لكابتن أمريكا وهو يسدد اللكمات لهتلر، وصورة أخرى لفريق العدالة وهم يتصدّون لوحش سوفيتي. فقال لها تميم:

- يبدو أن الأمر شيقاً، وليس على غرار مؤامرات مارجاريتا اليهودية العالمية التي أكثرت في الحديث عنها ونحن في موسكو. بالمناسبة كيف حالها لقد افتقدتها كثيراً بحق؟ هل اطمأنت عليها؟

تمّ الشهور على مارجاريتا وتزداد حالتها بأساً؛ يشد عليها ألم الوحدة والفراق كما تشد آلام مرضها بالعُدّة، ويكاد الاكتئاب يؤدي بها للانتحار. لم تعد تقدر على الكتمان، ولم تستطع الثبات على موقفها أكثر من ذلك. فصارحت ابنتها في آخر محادثة برغبتها في الانتقال إلى العيش بجوارها،

فطارت كلارا فرحًا بقرارها، فأخيرًا ستتحقق الأمانى ويجتمع الشمل بعد فراق أليم.

تحولت غرفة المعيشة إلى غرفة خاصة بمارجاريتها، والتي لم تمكث كثيرًا في القاهرة حتى وجدت فرصة عمل مناسبة كمعلمة للغة الروسية بالمركز الثقافي الروسي، الأمر الذي رفع كثيرًا من معنوياتها وأعاد لها نشاطها وحيوتها وضحكتها، ورفع عنها الحرج من تحميل تميم فوق طاقته، رغم مبالغته في الكرم وعدم إظهاره لأي شكوى أو ضجر. لم تتمنَّ مارجاريتا من الدنيا بعد ذلك سوى رؤية أحفادها.



القاهرة، السبت 17 مايو 2014

مرت سبع سنوات على زواج تيمم بكلارا، تعلّمت فيها اللغة العربية، وعملت مدرسة جودو محترفة في أحد النوادي الخاصة، وأشهرت إسلامها في العام الأخير، بعد طول بحث وقراءة ودعاء لبارئها. كانت موضوعية ومتجردة في تفكيرها، رفضت التأثير بسلبيات المجتمع من حولها أو الانصياع لأي حملات تشويه. تحفظت مارجاريتا على استحياء من قرار ابنتها ولكن لم تعترض بشكلٍ صريح. خاصة وأن كلارا كانت بارّة بها، وهذا القرار المصري لم يغير في سلوكها تجاه مارجاريتا بل زادها برّاً وتقديراً. إضافة إلى أن كلارا لم تغيّر اسمها أو اسم والدها حفاظاً على مشاعر والدتها المحبة له الحزينة على فراقه، فظلت كما هي: كلارا فيكتور.

لم يُرزَق تيمم وكلارا بمولود حتى اللحظة. على مدار السنين توالى محاولات لا تكتمل فرحتها، آخرها ما كشف عنه الطبيب على جهاز السونار ولم يستمع إلى نبض الجنين في الموعد الطبيعي، فطلب منهما إجراء أشعة رباعية الأبعاد 4D لتكون أكثر دقة، فكشفت الأشعة عن تشوه بالجنين وأملٍ ضعيف في إتمام الحمل. فنصحها الطبيب بالإجهاض واستجابت له، وأمضت يوماً أليماً في المستشفى. بعدما أفاقت في غرفتها

وجدت تميمًا ومارجاريتا يجلسان بجوارها على وجهيهما الوجوم الشديد، فور أن فتحت عينيها قاما إليها وقبّل تميم يدها وضمها برفق والدموع تغمر عينيه. فبادلته النظرة بنظرة حزينة كأنها تقول له «أنا السبب». بعد المغادرة في اليوم التالي والعودة إلى المنزل، سألته كلارا في الليل قبل النوم:

- هل أنت نادم على الزواج مني؟

- قطعًا لا يا حبيبتي، فكل شيء بقضاء الله، وقدره كله خير.

- لا أستطيع أن ألوّمك، فأنت بالتأكيد تشتاق إلى الذرية، لكن هذه إرادة الله، لقد صرت متيقنة بعد كل هذه المحاولات أن شبح تشيرنوبل قد مسني بسوء ولم يرحم ضعفي أو صغر سني.

- لا تشغلي بالك بهذا، فصحيح أنّي أشتاق إلى الذرية، ولكنني أحبك وأشتاق إليك أكثر.

- بالله يا تميم؟

- نعم؛ بالله يا كلارا.

- أنا ممتنة كثيرًا لك يا حبيبي، أنت بحق إنسان طيب وصالح.

- بل أنت يا حبيبتي التي تستحقين كل الحب والشكر والتقدير.

بابتسامة سخرية أردفت كلارا قائلة:

- كانت محقة تمامًا الكاتبة سفيتلانا فيكتوريفيتش، حينما وصفتنا في كتابها «صلاة تشيرنوبل» أن الكارثة قد حولتنا إلى «شعب تشيرنوبل»، تمامًا كالحيوانات النادر والمثيرة للاهتمام والذعر... أشعر أنني متعبة جدًا وفي حاجة إلى النوم.

- بالتأكيد يا حبيبتي، لابد وأن تحُصلي على قسطٍ وافٍ من الراحة.
أعدك بمجرد استلام السيارة من ورشة الميكانيكي أن نساfer يومين إلى
شاليه العائلة في العين السخنة للاستجمام.

- حقًا؟! كم أنا سعيدة بهذا الخبر، فأنا في أشد الحاجة لهذه الرحلة،
أشكرك يا تميم.

- تشكريني؟! أبدًا يا حبيبتي، وعلامَ الشكر؟! لولا هذا العطل المفاجئ
الذي أصاب المحرك أول أمس لذهبنا غدًا، لكن قدر الله وما شاء فعل.
هيا تصبحين على خير.

- وأنت من أهل الخير يا تميم.

أدار تميم ظهره لكلارا وأمسك هاتفه المحمول ليتصفح الفيسبوك حتى
ينام، فوجد أحد أصدقائه يكتب نعيًا بوفاة صديق الدراسة وليد قبل
حوالي ساعة بسبب حادث سير بالإسكندرية، وأن صلاة الجنازة ستقام
غدًا بعد صلاة العصر في مسجد الحصري بأكتوبر بجوار محل سكنه.
أصابه الخبر بالصدمة والحزن الشديد؛ فكان وليد من أفضل الناس سيرة
وخُلقًا وقد قذف الله في قلوب الناس محبته. استرجع تميم ودعا الله له
بالرحمة والمغفرة ولأهله بالصبر والسلوان، انتهت كلارا لتمتمته فسألته:

- خيرًا يا تميم؟ ماذا بك؟

- صديق عزيز لي توفي منذ ساعات، وستُصلى عليه الجنازة غدًا العصر.

- يا الله! اغفر له وارحمه يا رب.

- آمين يا رب. سأنصرف غدًا مبكرًا من العمل لألحق بالجنازة، وسأتأخر

عليك قليلًا في المساء.

- وهو كذلك، هوّن عليك يا حبيبي.
- الحمد لله على كل حال، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

في عصر اليوم التالي كان المسجد مكتظاً لآخره بالمصلين، في مشهد لا يراه تميم إلا في صلاة الجمعة والتراويح، فسُرَّ لذلك وانشرح صدره وقال:
- سبحان الله، تلك عاجل بشرى المؤمن بإذن الله، اللهم أحسن ختامنا والمسلمين.

بعد أداء صلاة الجنازة والسلام، لمّح عن شماله صديقاً قديماً يعرفه جيداً، فقام إليه:

- سليمان!

- تميم!

- ياه أنا لا أصدق! كيف حالك يا سليمان؟

- بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟ أفتقدك كثيراً يا صديقي، لم نلتق منذ سنين طويلة، منذ زواجك تقريباً.

- صحيح، الدنيا شغلتنا، أنت تعرف وليدًا؟

- نعم؛ هو صديقي وجاري من المعادي قبل أن يتزوج وينتقل للعيش في أكتوبر.

- رحمة الله عليه، كان من خير الناس.

- نعم؛ صحيح، كان يمشي بين الناس بالخير وكان الكل يحبه، رحمه الله وتقبله وأدخله فسيح جناته.

- آمين يا رب العالمين.

- إلى أين أنت متجه يا تميم، هل معك سيارة؟

- لقد انصرفت اليوم مبكرًا من العمل لألحق بالجنازة، وسأعود الآن إلى المنزل. السيارة ليست معي للأسف؛ في الحرفيين منذ يومين، كانت بحاجة إلى الماء ولم أنتبه لذلك، فمع التكييف وزحام المرور وحرارة الجو، ارتفعت حرارة السيارة بشدة وأصابت وش السيلندر. الحمد لله على كل حال. لكن لا تشغل بالك، المواصلات من هنا سهلة.

- ولماذا المواصلات؟ تعال معي فياني ذاهب إلى مشوار في وسط البلد، سأوصلك إلى رمسيس لو يناسبك؟ ولو انتظرت معي نصف ساعة أخرى لأنتهي من المشوار سأوصلك إلى المنزل. دعنا نتحدث قليلًا يا صديقي.

- رمسيس مناسب جدًّا، فلن أستطيع أن أظل أكثر من ذلك للأسف، فزوجتي أجهضت منذ أيام وهي متعبة في المنزل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، سلّمها الله من كل سوء، وأخلف عليكما بالخير.

- آمين يا رب. صحيح، مبارك عليك الزواج، ألمح الخاتم في يدك.

- نعم؛ الحمد لله منذ أربع سنوات، ومعني الآن سلمى تتم الثلاث سنوات الشهر القادم بإذن الله.

- ما شاء الله، بارك الله فيها وحفظها وجعلها من الصالحات.

- آمين يا رب العالمين.

على بعد خطوات من المسجد، كانت سيارة سليمان تنتظر تحت أشعة الشمس الملتهبة:

- اركب يا تميم.

فهو أسهل في الوصول إلى الجمهور وإلى الشباب بوجه أخص، والذي عزف الكثير منه عن الوسائل التقليدية التي تهيمن عليها الأجيال القديمة، إلى مواقع التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي الذي يشكله كل فرد بطريقته، ويضع له قوانينه وضوابطه الخاصة، ويشعر فيه بقوته وحريته. كما أن وسائل التسويق في هذا العالم الرقمي كثيرة ومتنوعة، وفيها الغنى عن عناء توزيع وتحصيل ثمن المنتج الورقي وما بينهما من عوائق وعراقيل كثيرة وروتين.

- صحيح، أنت محقٌّ في ذلك. ما هو اسم المشروع؟

- اخترنا له اسم «الرأي والخبر».

- اختيار لطيف، لكن لماذا؟

- لأن هناك خلطاً في المفهوم عند كثير من الناس بين الرأي والخبر؛ فإبداء الرأي لا يشترط فيه الحياد، أما نقل الخبر فيُشترط فيه الحياد والتجرد والتحقق من المنقول. لا يوجد في قاموس الإعلام ما يُعرف بـ «الإعلام المحايد» أو غير المؤدلج، وهذا ليس عيباً في ذاته؛ لأن وسائل الإعلام المختلفة هي الآلة التي يَستخدمها صاحب الرسالة أو التوجُّه والأيديولوجيا لنشر أفكاره أيّاً كانت. مثل هذه المبادئ العامة لا تطبق للأسف في كثير من الأخبار المنقولة والعناوين البراقة التي لا يتورع أصحابها عن نشرها بغرض التشنيع من فلان أو علان. ولذلك، كمحاولة للتوعية بهذا المفهوم، أردنا أن نبرزه كعنوان للمشروع.

- جميل، وما أقسام هذا المشروع.

- أقسام البوابة عديدة ومتنوعة؛ فهي بوابة إخبارية، اجتماعية، ثقافية،

سياسية، صحية، دينية، فنية، نسائية، وبها قسم خاص للأُم والطفل.

- جميل ما شاء الله. قفز إلى ذهني أمر الآن أعرضه عليك، فقد يكون إضافة مميزة.

- ممتاز، وما هو؟

- هل لديكم قسم خاص بالكاريكاتير؟

- حتى الآن لا، ولكنه في الخطة.

- أعرف رسامة كاريكاتير محترفة كانت تعمل في مجلة أجنبية كبيرة وخبرتها تزيد عن الثلاثين عامًا.

- حقًا؟ هذا رائع، لكن مؤكد أنها ستطلب أجرًا كبيرًا.

- لا، لا تقلق من هذا.

- من تكون هي؟

- مارجاريتا، حماقي.

- حقًا؟!

- نعم؛ إنها رسامة كاريكاتير مخضمة، وتعيش معنا في مصر منذ قرابة 6 سنوات ولها إلمام جيد بالشأن الداخلي والخارجي.

- ممتاز ممتاز، ليته توافق أن تشاركنا هذا المشروع المتواضع، ستكون إضافة قوية!

- سأعرض عليها الأمر وأحاول إقناعها بإذن الله. لكن للأمانة؛ ربما تختلفون قليلًا في نظرتكم لبعض الأمور، فهي لها أفكار غريبة بعض الشيء، وتؤمن كثيرًا بالمؤامرات الكونية والأيدي الخفية والخطر اليهودي العالمي وما إلى ذلك، والأمر يأخذ كثيرًا من حيز تفكيرها ونظرتها للأمور، ومن خلال معرفتي بك أنك على العكس من ذلك تمامًا.

- بالفعل، مع كامل احترامي لحماتك الفاضلة، أنا لا أطيع مثل هذه الأفكار كما تعرف، بل وأعتبرها كسلاً فكرياً. ومسألة، على سبيل المثال، كمسألة المؤامرة اليهودية الكونية وبروتوكولات حكماء صهيون، قطعت فيها شوطاً من البحث وراء حقيقتها، وتوصلت في النهاية إلى أنها مزيفة.

- مزيفة؟! هكذا قولاً واحداً؟

- نعم؛ مزيفة، ومنتحلة من كتاب فرنسي قديم اسمه «حوار في الجحيم بين مكيافيللي ومونتيسكيو» لصحفي يدعى موريس جولي، طبع في جنيف عام 1864، وفيه ينتقد جولي نظام نابليون الثالث، وكتبه بأسلوب ساخر في صورة خمسة وعشرين حواراً دار بين روح كل من نيكولو مكيافيللي وشارلز مونتيسكيو، وفيه يمثل مونتيسكيو التيار الليبرالي في حين يمثل مكيافيللي الطغيان والاستبداد. وبسبب تأليف جولي للكتاب تم اعتقاله من قبل شرطة نابليون الثالث وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر شهراً، وبغرامة مالية قدرها مئتا فرانك، وصادرت الشرطة ما توصلت إليه من نسخ، وحظرت طباعة أو نشر الكتاب، حتى عام 1933.

- عجيب! وكيف تم هذا التزوير؟ فلقد قرأت مقدمة الكتاب، والتي قال فيها سرجي نيلوس أنها وقعت في حوزته بعدما سرقت سيدة فرنسية النسخة الأصلية منها من أحد أوكار الماسونية في فرنسا.

- لقد قرأت هذا بالطبع، ولكن هذا الكلام يطول الحديث فيه، لا أظن يتوفر لنا وقت الآن، فقد وصلنا إلى ميدان الإسعاف. فلعلنا نتحدث في وقت لاحق، وستكون فرصة طيبة لأن نلتقي مرة أخرى عن قريب. في كل الأحوال سأرسل لك على الإيميل بعض نصوص الكتاب الذي ذكرته لك

عندما أصل إلى المنزل بإذن الله. اكتب لي عنوان الإيميل في رسالة. لا زلت
أحتفظ برقم هاتفك القديم، هل غيرته؟

- لا، هو نفسه لم أغیره. ها قد أرسلت لك العنوان وسأنتظر رسالتك.

- أكيد بإذن الله.

- لم أشعر بالوقت، الحديث كان شيقاً. أحب كثيراً مثل هذه المناقشات
وأفتقدها مع باقي الأصدقاء.

- وأنا كذلك، ليتنا نتقابل قريباً ويكون ماجد معنا، نرتب لذلك بإذن
الله. أين تود النزول؟

- ممكن عند مسجد الفتح.

- نعم؛ لحظات لأقف بالسيارة على جانب الطريق، هيا في أمان الله،
ولا تنسَ وليدًا في دعائك.

- بالتأكيد، شكرًا يا صديقي، إلى لقاء قريب.

عاد تميم إلى بيته، فدخل وسلّم على مارجاريتا التي كانت تقف
في المطبخ تغسل بعض الأكواب، ثم دخل إلى الغرفة ليطمئن على كلارا
فوجدتها نائمة. فغيّر ملابسه وخرج إلى الصالة ليصلي المغرب. سألتها
مارجاريتا لو يريد لها أن تعد له الطعام، لأنها وكلارا أكلتا، فاستأذنها
وشكرها لذلك. تناول طعامه وجلس ليشاهد التلفاز قليلاً مع مارجاريتا،
حتى أذن العشاء فقام ليصلي وينام قليلاً بعد هذا اليوم الشاق.

عندما استيقظ في الحادية عشرة من المساء، كانت كلارا لا تزال نائمة،
ومارجاريتا قد خلدت إلى النوم. فدخل المطبخ ليستفيق بكوبٍ من الشاي،

فأعدّه وخرج به إلى الصالة، ودخل إلى الغرفة في هدوء ليحضر اللابتوب. كان قد تبقّى له ساعة في فيلم Argo لم يشاهدها بعد، كانت فرصة لاستكمالها، لكنه كالعادة لم يستطع في البداية الامتناع عن إلقاء نظرة «سريعة» على الفيسبوك. فوجد طلب صداقة مرسلًا له من سليمان، ومعه رسالة على الخاص بأن يراجع الإيميل.

قبل الطلب، ثم فتح الإيميل على الفور. فوجد رسالة من سليمان بدون عنوان، فتحها فوجد فيها ملف وورد Word، فحمّله في ثوان ثم فتحه ليجد فيه فقرات من بروتوكولات حكماء صهيون وأسفل منها فقرات من كتاب موريس جولي. وفي نفس الإيميل مرفق ملف ثان لنسخة إلكترونية من كتاب موريس جولي، وملف ثالث للبروتوكولات باللغة العربية.

بدأ في قراءة الملف الوورد فوجد فيه ثلاثة أمثلة، قسّمها سليمان على النحو التالي:

جاء في البروتوكول الأول: «يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددًا من ذوي الطبائع النبيلة... ماذا كبح الوحوش المفترسة، التي نسميها الناس، عن الافتراس؟ وماذا حكمها حتى الآن؟ لقد خضعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون».

وجاء في الحوار الأول على لسان مكيافيللي: «إن الطبائع الفاسدة في الإنسان هي الغالبة على الطبائع النبيلة... من يكبح هذه الوحوش المفترسة التي نسميها بشرًا عن أن تتصارع فيما بينها؟ في بداية نشأة المجتمعات كانت القوة الغاشمة المطلقة، ثم بعد ذلك كان القانون».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار الأول:

«L'instinct mauvais chez l'homme est plus puissant que le bon... Qui contient entre eux ces animaux dévorants qu'on appelle les hommes? A l'origine des sociétés, c'est la force brutale et sans frein; plus tard, c'est la loi».

جاء في البروتوكول الثاني عشر: «ستكون لنا جرائم شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضًا... وستكون هذه الجرائم مثل الإله الهندي فشنو، لها مئات الأيدي، وكل يد ستجس نبض الرأي العام المتقلب».

وجاء في الحوار الثاني عشر على لسان مكيافيللي: «مثل الإله فشنو، سيكون لصحافتي مئة ذراع، وسوف تمد هذه الأذرع يد العون لكل الآراء المختلفة الموجودة على الساحة في البلاد مهما كانت».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار الثاني عشر:

«Comme le dieu Wishnou, ma presse aura cent bras, et ces bras donneront la main à toutes les nuances d'opinion quelconque sur la surface entière du pays».

جاء في البروتوكول العشرين: «القرض هو إصدار أوراق حكومية توجب التزام دفع فائدة تبلغ نسبة مئوية من المبلغ الكلي للمال المقترض. فإذا كان القرض بفائدة قدرها خمسة من مئة، ففي عشرين سنة ستكون الحكومة قد دفعت بلا ضرورة مبلغًا يعادل القرض لكي تغطي النسبة المئوية. وفي أربعين سنة ستكون قد دفعت ضعفين، وفي ستين سنة ثلاثة أضعاف المقدار، ولكن القرض سيبقى ثابتًا لأنه دين لم يسدد».

وجاء في الحوار العشرين على لسان مونتييسكيو: «كيف تمارس القروض؟ تمارس عن طريق إصدار سندات مالية تحوي التزامًا من الحكومة بدفع فوائد محددة من قيمة رأس المال المدفوع. فلو كان القرض بفائدة 5% على سبيل المثال، ستكون الدولة بعد عشرين سنة قد دفعت مبلغًا يعادل رأس المال المقترض، وبعد أربعين سنة ستكون قد دفعت الضعف، وبعد ستين سنة ستكون قد دفعت ثلاثة أضعاف. ومع ذلك تبقى دائمًا مدينة بنفس قيمة رأس المال».

وهذا هو نص ما جاء في الحوار العشرين:

«Comment se font les emprunts? par des émissions de titres contenant obligation de la part du gouvernement, de servir des rentes proportionnées au capital qui lui est versé. Si l'emprunt est de 5 p. c. [%], par exemple, l'Etat, au bout de vingt ans, a payé une somme égale au capital emprunté; au bout de quarante ans une somme double; au bout de soixante ans une somme triple, et, néanmoins, il reste toujours débiteur de la totalité du même capital».

أخذ تميم يعيد قراءة الأمثلة وهو لا يصدق هذا التطابق العجيب بين النصوص، ثم ضغط على الروابط الأخرى لتحميلها ومراجعتها بنفسه فوجد الأمر كذلك. فضحك متعجبًا وقال في نفسه:

- يا ويلك مني يا مارجاريتا!

في مساء اليوم التالي جلس الثلاثة على العشاء، فقالت له ماجاريتا:

- نمت مبكرًا بالأمس.

- نعم؛ فقد كان يومًا مرهقًا فاستسلمت للنوم سريعًا. قابلت بالصدفة صديقًا قديمًا اسمه سليمان، أنت تعرفينه لكن لا أظنك تتذكرينه، فقد رأيته مرة واحدة فقط في أول لقاء لنا في شرم الشيخ.

- صعب أن أتذكره.

- المهم، حين التقيته بالأمس طال بنا الحديث وتطرق إلى عدة مواضيع؛ فهو صحفي بدأ منذ وقت قريب في مشروع بوابة إلكترونية إخبارية وثقافية على الإنترنت. الموقع مميز وغير تقليدي. فطراً إلى ذهني أن أسأله عن وجود قسم خاص بالكاريكاتير ضمن أقسام الموقع، فأجابني بلا، فاقترحت عليه أن تتولي مسؤولية هذا القسم؛ كل ما عليك فعله هو إرسال رسمة كاريكاتير حصرية كل أسبوع بتوقيعك. ذكرت له أن هذا تخصصك منذ قرابة ثلاثين عاماً وأن لك فكراً ومتابعة للشأن العام الداخلي والخارجي، وأن انضمامك لفريق العمل بالموقع سيكون مغنماً كبيراً وإضافة قوية. فرحب ووافق على الفور، فقط تخوف من الماديات، وأنا بعد إذنك طمأنته وقلت له لا تخف. فما رأيك؟

فضحكت وقالت له:

- وأين إذني في كل ما قلت؟

- صراحة هذا ظني بك أنك ستوافقين لعلمي بحبك لعملك. وعلى كلٍ فأنا أعتذر لو تسببت لك في إحراج والأمر بسيط لا تقلقي، أستطيع الاعتذار له بسهولة.

بالتقافة، كان لي زميل في روسيا اسمه ميخائيل ليبيخين، مؤرخ للأدب الروسي.

- وما قصته؟

- التقيت به في المعهد الأدبي في روسيا في ديسمبر عام 1999 على ما أذكر، حيث كان يعمل أمينًا للأرشيف آنذاك، ذهبت إليه بغرض إجراء حوار صحفي معه، وسؤاله عن تواريخ بعض المخطوطات بحكم تخصصه في المطبوعات الروسية الصادرة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. تجاذبنا أطراف الحديث، وكان منشغلًا جدًا بدراسة تاريخية حول بروتوكولات حكماء صهيون، فحكى لي عن حوار قريب أجراه مع صحيفة الإكسبريس الفرنسية L'Express، ذكر فيه ما تقوله أنت الآن وصديقك، وزاد بأن المؤامرة تمت بواسطة أحد عملاء الشرطة الروسية السرية في باريس بغرض إيهام القيصر نيقولا الثاني بوجود مخططات يهودية سرية تقضي بالإطاحة بالتيار الروسي الأرثوذكسي المحافظ، وتتستر وراء التيار الليبرالي الإصلاحية في روسيا. وحينما راجت البروتوكولات وأثارت القلاقل في داخل روسيا، أمر رئيس مجلس الوزراء الروسي وقتها بيوتر ستولين بإجراء بعض التحريات السرية حولها، والتي كشفت خيوط المؤامرة الباريسية، حينها أخبر ستولين نيقولا الثاني بالأمر، والذي رغم ولعه الشديد بها، أصدر قراره بمصادرة نسخ البروتوكولات ومنع نشرها في روسيا، وقال أن الدوافع الطيبة لا ينبغي أن تدعم مثل هذه المسالك الحقيرة. ولكن بعد اندلاع الثورة الروسية، التي عرفت بأنها ثورة يهودية من الدرجة الأولى، راجت البروتوكولات في أوروبا، ثم في أمريكا وباقي دول العالم، وترجمت إلى عدة لغات.

- كلام منطقي، ما الإشكال فيه؟

- أتمزح يا تميم؟ ألا ترى بنفسك كيف تنفذ هذه البروتوكولات حرفياً في كل ما يدور حولنا؟ ألا ترى اليهود بارزين في كل مجال وفي كل فكر شاذ؟
- يا عزيزتي، المؤامرات موجودة لا ينكرها عاقل، وهذا البروز ظاهرٌ لا تخطئه العين، ولكن له أيضاً من الأسباب الاجتماعية والتاريخية المرغبة الكثيرة ما يكفي لتفسيره، ولكن عقلنا الإنساني بطبيعته الكسولة إن لم يجد تفسيراً ملائماً لواقعة ما، فإنه يميل إلى اختزالها وردّها إلى أياد خفية تُنسب إليها كافة التغييرات والأحداث، وهي اليد اليهودية في العادة.
- و جهة نظر.

- وماذا لو قطعت لك هذا الشك باليقين؟

- كيف؟

- لحظات وأعود لك. لماذا لا تعدّين لنا الشاي حبيبتي كلارا؟

دخل تميم إلى غرفته وسرعان ما أحضر اللابتوب وعاد إلى ماجاريتا، فتح رسالة سليمان له على الإيميل وكتاب موريس جولي المرفق معها، وفتح مترجم جوجل، وجلس ليعرض الأدلة على ماجاريتا ويترجمها.

- حسناً ماجاريتا ما قولك الآن؟

- وما يدريك يا عزيزي أن هذا الكتاب حقيقي وليس مزوراً من قبل

أصحاب هذا الرأي بغرض إثبات صحته؟

فنظر تميم بطرف عينه إلى لكلارا التي كانت تقف خلف أمها لتقرأ

الإيميل ويعلم وجهها التبسّم من جوابها، فقال:

- معك حق ماجاريتا، معك كل الحق، أنا آسف!!

القاهرة، الثلاثاء 20 مايو 2014

كان يوماً طويلاً مَرَّ على تميم؛ فقد أنهى عمله في الخامسة مساءً ثم ذهب لاستلام سيارته من الحرفيين. كانت كلارا قد بدأت تسترد عافيتها، لكنها لم تستأنف عملها في تدريب الجودو بعد. اتصلت بتميم في السادسة لتطمئن عليه وتسأله عن موعد قدومه. فأجابها أنه كالمتوقَّع لم يستلم السيارة على الفور، وسيضطر للانتظار في الورشة بعض الوقت لحين الانتهاء من تركيب الموتور. دخلت كلارا المطبخ لإعداد حساء البورسشت الروسي البارد كعشاء خفيف لهم، ثم دخلت لتستلقي بجوار والدتها على السرير في انتظار تميم. كانت مارجاريتها ممسكة بجهازها اللوحي (التابلت) تستمع إلى مقطوعة «كالينكا» Kalinka الفلكلورية الروسية على «يوتيوب» وتتهدد، فسألها كلارا:

- ماذا بك يا أمي؟

- أحن إلى روسيا وأيامها يا ابنتي!

ابتسمت كلارا وربتت على يد والدتها، ثم أمسكت بهاتفها المحمول لتتصفح الفيسبوك بيدها الأخرى. بينما هما كذلك وصل كلارا على هاتفها إشعار من يوتيوب عن صدور كليب جديد على القناة الرسمية لقناة الفريق الإنجليزي بينك فلويد لمقطوعة Marooned.

فتعجبت كلارا كيف يكون الكليب جديدًا على القناة والمقطوعة صدرت منذ 20 سنة!

فتحت الإشعار، وقرأت التعريف المكتوب بداخله، فوجدته إصدارًا جديدًا للمقطوعة القديمة احتفالًا بمرور 20 عامًا على صدور ألبوم The Division Bell، الذي يعتبر أحد أيقونات الفريق الإنجليزي الشهير في مسيرته التي امتدت إلى 49 عامًا.

فاستأذنت أمها في وقف سماع الكالينكا ليشاهد الكليب معًا:

- استمعي يا أمي لهذه المقطوعة الشجية لفرقتي المفضلة، ستعجبك أنا واثقة.

بعد دقيقتين من الاستماع أدارت كلارا عينيها نحو والدتها لتجدها مشدوهةً ودامعة العين، وفي حالة مريبة من الصمت!

خمنت كلارا ما الذي أصاب مارجاريتا بهذه الحالة، لكن لم تسألها على الفور لتتأكد منها، واستمرت في متابعة الفيديو حتى انتهى، ثم سألتها:

- خيرًا يا أمي؟!

- هل تعلمين يا ابنتي ما معنى اسم هذه المقطوعة Marooned؟

- ما معناه؟

- معناه من هاجر موطنه وتقطعت به السُّبُل، وترك متاعه وراء ظهره بغير أي مساعدة أو مورد... اختيار هذا المكان تحديدًا لتصوير الكليب وربطه بهذه المقطوعة فيه من البراعة والعبقرية ما أشعرنى بصدمة وخوف لا أستطيع أن أصفهما لك.

- هل لأن الاختيار وقع على بريبيات؟

- نعم كلارا؛ لأنها بريبيات.

عاد تميم إلى المنزل في التاسعة. فدخل وسلّم، ولاحظ حالة الوجوم على وجهيهما، فاطمأن أنهما بخير بدون معرفة تفاصيل، وغير ملبسه وتناول معهما الحساء البارد الذي يندم بسببه على شوربة العدس التي كانت تعدها والدته وكان يسخط عليها. ثم دخل إلى الغرفة، ولحقت به كلارا بعد عشر دقائق، فسألها قبل أن يخلد إلى النوم:

- ماذا حدث كلارا؟

- أبداً يا حبيبي لا تنزعج، هو فقط أمر يطول شرحه وكلانا الآن مجهد، سأخبرك بعد غد الخميس حينما تنفذ وعدك لي.

- وما هو وعدي؟

- ألم تعدني بالذهاب إلى مكان جديد هذا الخميس؟ نفذ وعدك لي وسأحكي لك حينها.

- فابتسم تميم، وقال لها: حسناً، فقط أرجو ألا أعتم بما سأسمع.

- أبداً يا تميم، أعدك ألا أعكر لك صفو اليوم بإذن الله.

- متفقان.

القاهرة، الخميس 22 مايو 2014

كان تميم قد نوى أن يصطحب كلارا نهاية هذا الأسبوع إلى الفرع الجديد من مقهى باول Paul الفرنسي المفضل لهما، والذي تم افتتاحه هذا الشهر في الكوربة بمصر الجديدة.

يفتح تميم الباب لكلارا فتنبعث رائحة الإسبريسو الزكية من المكان المكيف هواؤه، فيستقبله النادل بابتسامة لطيفة ويسأله:

- مدخن أم غير مدخن؟

- غير مدخن.

فيتأمل النادل للحظات في المكان، ثم يشير إلى طاولة في جهة اليمين، فيجلسان، ثم يسأل تميم زوجته:

- ماذا أطلب لكِ حبيبتي؟

- سأخذ الليلة كابتشينو مع أي حلوى ترشحها لي.

قام تميم إلى ثلاجة الحلوى ليرى المتاح فيها، ثم عاد إلى الطاولة ونادى للنادل:

- أستاذك في 2 كابتشينو بحليب كامل الدسم مع قطعة من الإكلير

بكريمة الفستق، وقطعة أخرى بكريمة القهوة، وقطعة من كعكة الدارك فورست، وزجاجة مياه باردة.

ينصرف النادل، فيبتسم تيمم إلى كلارا ليسألها:

- حسنًا يا حبيبتني، ها قد نفذت وعدي، ألا تخبريني الآن ماذا دار بينك وبين مارجاريتا أول أمس؟

- نعم؛ أكيد، كل ما في الأمر هو أن مارجاريتا تشتاق إلى زيارة روسيا.

- أهذا فقط؟!

- بالتأكيد لا، لكن دار بخاطري ليلتها أمر آخر.

- وما هو إذن؟

فحكّت له الموقف والحوار الذي دار بينهما، وفتحت له اليوتيوب ليشاهد الفيديو، ثم قالت:

- ما رأيك أن نأخذ إجازة ونذهب في رحلة إلى روسيا؟

- روسيا؟! هذا اقتراح مفاجئ يحتاج إلى ترتيب ومراجعة حسابات، لكن لا بأس، فكرة جيدة، حتى نسترجع أيامنا الحلوة.

- رائع، ما رأيك إذن في الذهاب من روسيا في رحلة إلى برييات.

- برييات! أهذا معقول؟ كيف؟!

- نعم؛ معقول؛ فلقد لفت نظري في الكليب بخلاف الإسقاط العميق فيه، فكرة إتاحة التصوير في المكان. فأمضيت ليلتي أبحث على جوجل عن برييات، فظهر لي ضمن نتائج البحث صور ومقاطع فيديو لزيارات سياحية تمت للمدينة ولمفاعل تشيرنوبل قام الهواة بتصويرها، فبحثت عن الزيارة لبرييات، وتبين لي أن هذا أحد مجالات السياحة المتاحة

- أم نتفق على أن نلتقي قريبًا أيها الأندال؟

وقد أجابه ماجد في حينها وكتب:

- أنا مستعد تمامًا لذلك فور عودتي من الساحل الأسبوع القادم.

فكتب سليمان:

- ممتاز، لنتظر رد تميم، أرجو ألا يتجاهلنا كالعادة.

فضحك تميم وكتب لهما:

- أنا مستعد بإذن الله، لكن كما هو الحال مع ماجد، ليس قبل

الأسبوع القادم؛ فوالدي مريض وأنا مضغوط جدًّا في البيت والعمل بسبب ذلك.

فأجابه سليمان:

- شفاه الله وعافاه وأعانكم الله. حسنًا إذن نجدد الاتفاق بعد أسبوع

بإذن الله.

كان ماجد حاضرا المحادثة فكتب على الفور:

- ألف سلامة على عمي عثمان... عندي اقتراح إذن؛ لماذا لا نلتقي يوم

افتتاح كأس العالم، ونشاهد المباراة في أي مقهى نتفق عليه؟

فأجاب سليمان:

- هذا اقتراح لطيف رغم أنه بعيد، أنا موافق.

فكتب تميم:

- وأنا أيضًا موافق بإذن الله.

سرعان ما انتبه أن كلارا تقف خلفه تطلع على المحادثة، فأدار رأسه

لها وقال بنبرة قلق:

- خيراً يا حبيبتي.

فسألته:

- مع من تتحدث.

- هؤلاء أصدقائي القدامى؛ سليمان وماجد لو تذكريهما.

- مممم حسناً.

- ظننت أن المصريات هن فقط من يفعلن ذلك، لكن من الواضح أن

الهرمونات لا ترتبط بجنسية!

القاهرة، الخميس 12 يونيو 2014

كانت الساعة الثامنة والربع حينما بدأت مراسم افتتاح كأس العالم في البرازيل. التقى سليمان وماجد لمتابعتها في المقهى. لم يكن تميم قد حضر بعد؛ فقد كان ملتزمًا قبل اللقاء بموعد مع والده عند الطبيب وانتظرا وقتًا طويلًا في العيادة المزدحمة.

في العاشرة اتصل تميم بسليمان وأبلغه أنه قد أوصل أباه إلى المنزل وهو الآن في طريقه إليهما:

- مسافة الطريق وتجداني أمامكما، احجزا لي كرسيًا لو المكان مزدحم.

- هو مزدحم بالفعل لكن لا تقلق.

وصل تميم إلى المقهى بعد نصف الساعة، وكان هرج شديد وفرح بهدف التعادل لنيمار في مرمى الكُرّوات.

دخل لبيحث عن صديقه متخطيًا الرقاب من شدة الزحام وعيناه شاردتان مع التلفاز ليشاهد الهدف في الإعادة، فاصطدم بغير قصد بظهر نادل ممسك بشيشتين متوهجتين كاد أن ينكب بهما على أحد الجلوس، لكنه ضبط توازنه سريعًا ثم التفت إلى تميم ورمقة بنظرة ممتزجة بالارتباك والغضب الشديد وهمّ بالتشاجر معه لولا اعتذار تميم.

تابع تميم البحث عن صديقيه حتى وجدهما في الخلف ينظران إليه وهما غارقان في الضحك، فنظر إليهما نظرة خجولة وأشار بيديه أن ماذا كان يفعل؟!

وقف له ماجد ليعانقه بعد طول غياب، ثم أفسح له وقال:

- تعال اجلس هنا حجزنا لك هذا الكرسي.

فسألهما تميم:

- علام ستعزمان عليّ؟

فأجابه ماجد:

- نعزم على ابن الحاج عثمان بجلاله وقدره؟

- لا زلت على حالك يا ماجد طويل اللسان. لا توجد مشكلة يا

صديقي، حسابكم الليلة عندي، وفي المقابل أسألكما الدعاء للوالد، فظروفه الصحية غير مطمئنة.

- لا يا أخي، أنا فقط أمزح معك كما تعلم بالتأكيد... لا حول ولا قوة

إلا بالله، شفاه الله وعافاه، ماذا به؟

- آمين يا رب، أصيب بذبحة صدرية منذ وقت قريب، وانتقل إلى

العناية المركزة، مكث بها عدة أيام ثم خرج منها بعد إجراء دعامة للقلب.

- أسأل الله أن يعافيه وأن يبارك في عمره.

- يا رب.

توقف حديثهم حتى انتهى الشوط الأول، ليستأنف تميم كلامه مع

ماجد ويسأله:

- سليمان أخبرني أنكما تعملان معًا.

- نعم؛ فبعد التخرج من الكلية تنقلت بين عدد من الشركات ولم أستقر في أيٍّ منها، لم يكن لي طاقة بعمل المهندسين المدنيين. ولو تعلم أي قبل التخرج كنت أعمل في مجال البيع والتسويق وأهواه كثيرًا، فأخذت القرار بالتحوُّل الوظيفي وتخصصت في مجال الدعاية والتسويق، وأخذت بعض الدورات التدريبية ثم أسست شركة صغيرة للتسويق الإلكتروني، وتعاقدت مع عدد من العملاء في مجالات مختلفة، من ضمنها مشروع سليمان الإعلامي.

- جميل... كثيرًا ما أحاول إقناع والدي باستخدام وسائل التسويق الإلكتروني للترويج لنشاطه التجاري، لكنه لا يهتم ويرى أن الإنفاق فيها غير مجدٍ ويكتفي باسمه وبسمعة المتجر وبالوسائل التقليدية التي لم يعد أحد يهتم بها كما كان الحال في الماضي.

- والدك كغيره من الكبار، يرى أن طالما العمل يسير والأمور على ما يرام فالإنفاق في هذا المجال يعتبر تذييرًا. من النظريات العامة ما يقول أن التسويق يمثل نحو 70% من نجاح عملية البيع للسلعة، أو حتى الترويج لأي فكرة. بالطبع هناك عوامل كثيرة تتداخل مع هذه النظرية وتؤثر على هذه النسبة سلبيًا وإيجابًا. الفكرة كلها في تحويل المستهلك من ثقافة الاحتياج إلى ثقافة الرغبة، وإيجاد حاجة المستهلك للسلعة التي تباع؛ من الممكن تسويق وبيع أي سلعة غير أساسية أو ضرورية للناس عن طريق ربطها مباشرة برغباتهم الدفينة ومداعبة غرائزهم، وتحويل الرغبات إلى احتياجات أساسية لا غنى عنها.

- كيف يتم هذا الربط؟

- ترى هذه السجائر التي أَدخنها؟

- لايي سترايك؟

- نعم؛ هذه السجائر لها قصة طريفة مشهورة؛ ففي مطلع القرن الماضي، كان تدخين النساء للسجائر أمرًا معيَّبًا وغير مقبول مجتمعيًّا.

- وما زال!

- ما علينا؛ المهم هو أن الشركة المنتجة للسجائر كانت ترغب في زيادة حجم مبيعاتها وتحقيق أضعاف المكسب، فلجأت إلى رجلٍ يُدعى إدوارد بيرنيز، والذي بعد تفكير وضع حيلة ليكسر بها هذا التابوه.

- وما هي؟

- في عام 1928، اتفق مع مجموعة من الفتيات،الموديلز، على الخروج في استعراض يجول شوارع نيويورك، وأُخبر في الوقت ذاته الصحفيين بأن هناك مجموعة من الناشطات من إحدى جمعيات حقوق المرأة سيُقمن بإيقاد «شعلات الحرية». وعندما حان الوقت وتجمهرت الفتيات، واجتمع الصحفيون المتعطشون لتغطية الحدث، قمن بإشعال سجائر لايي سترايك، وقام الصحفيون بتصويرهن، وتصدرت الصحف حينها مانشيتات «مجموعة من الفتيات نفثن السجائر في سبيل الحرية»، والتي كسرت حاجز الرهبة في قلوب النساء من التدخين على الملأ في الأماكن العامة.

- هذا شيطان!

- بالمناسبة بيرنيز هذا يعتبر الأب الروحي لعلم البروباجاندا، القائم على نشر المعلومات بطريقة موجهة وأحادية، وتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص. أتعلم؟ جوزيف جوبلز وزير هتلر للدعاية السياسية في ألمانيا النازية، المأثور عنه

قوله الشهير: «أعطني إعلماً بلا ضمير، أعطك شعباً بلا وعي»، كان من أشد المعجبين والمتأثرين بأفكار وكتابات بيرنيز. مع العلم أن بيرنيز قد طور هذا العلم لاحقاً لما يعرف اليوم بعلم العلاقات العامة Public Relations نظراً لسوء سمعة كلمة بروباجاندا وارتباطها بالحروب. ولقد بناه على أسس العلوم الاجتماعية وعلم النفس التحليلي الذي وضعه خاله سيجموند فرويد.

- خاله؟! -

- نعم؛ فرويد كان خاله وزوج عمته في نفس الوقت.

- عجيب!

كان سليمان مشغولاً بكاملة على هاتفه، وما أن انتهى منها حتى قام من مقعده فجأة ويبدو عليه الارتباك، والشوطين الثاني من المباراة قد تبقى عليه ثلث الساعة، فسأله صديقه:

- ماذا بك؟ إلى أين أنت ذاهب والمباراة لم تنته بعد؟!

- أبداً، تذكرت أن زوجتي طلبت مني المرور على التزوي في ميدان الجامع، وأنا نسيت أن أمرّ عليه قبل المباراة، ولا بد أن ألق بالمتجر مع أن أغلب الظن أنه أغلق. عذراً يا صديقي.

لم يسيطر ماجد على لسانه فقال:

- الزواج وسينيه.

فأجابه سليمان:

- الدنيا دوارة يا صديقي فلا تتعجل. في يوم من الأيام كنت أقول مثلما تقول. هل سيقوم أحدكما معي؟

فأجابه تميم:

- هوّن عليك، فلقد رن هاتفي مثلك منذ خمس دقائق، لكنني سأقوم مع ماجد فور انتهاء المباراة.

- أخاف أن أحسدك! هيا أراكما لاحقًا، مع السلامة.

لم يمضِ هذا الشهر حتى زادت أحوال عثمان الصحية تردّيًا؛ فلم يعد يقدر على مباشرة تجارته بنفسه وصار يعتمد على تميم بشكل أساسي، خاصة وأن أخاه كرميًا آثر الحياة الأكاديمية بعد تخرجه من كلية الهندسة، فهو يعمل الآن معيّدًا بالكلية ويحضر الماجستير في الهندسة الميكانيكية، مما أثر على إدارة تميم لشركة البرمجيات التي افتتحها قبل ذلك بثلاثة أعوام، وعلى موازنة أموره الحياتية بشكل كبير؛ فأصبح يغيب عن البيت بشكل دائم، ينتقل بين شركته وتجارة الوالد ورعاية أمه في بيتها. وعلى الرغم من تضرر كلارا من هذا الوضع، إلا أنها لم تظهر له الضجر ولم تشق عليه بالأعباء والمشاكل الإضافية، وشغلت نفسها بعملها وبرعاية أمها، مظنة أن ينفرج هذا الوضع الذي دام ما يزيد عن ثلاثة أشهر حتى توفي والده. لكن الأمر ازداد سوءًا؛ فلقد أثقلَ كاهل تميم بأعباء إضافية من تولى إدارة أعمال والده بالكامل بناء على ما تضمنته وصيته، بما فيه ذلك مشاكل الديون والإرث. وزاد الأمر تعقيدًا مفاجأة عمّه جلال له بمطالبته بسداد ما تبقى من دين والده له، وإلا قام بشكل نهائي ببيع شاليه العين السخنة وفقًا للعقد المبرم بينه وبين والده.

سأله تميم حينها بغضب:

- تبيعه بأي حق يا عمي؟ وأي عقد تقصد؟

فأطلعته عمه على عقد أصلي موقع بخط يد والده ومحفوظ في ملف أخضر. كانت صدمة تميم كبيرة حينما تذكر ذلك الملف الذي سلّمه له بنفسه يوم أن ذهب لزيارته مع والده منذ قرابة تسع سنوات. فقال له عمه:

- والدك عثمان رحمة الله عليه كان وقتها مثقلًا بالديون ومهددًا بالسجن من قِبَلِ بعض من يتاجر معهم، ولم يكن يحب أن يطلعكم بهذه الأمور لكي لا يعكر لكم حياتكم. فأقرضته مبلغًا كبيرًا وأبرمنا عقدًا برهن شاليه العين السخنة فقط لضمان جدية السداد خلال ثلاث سنوات لم يسدد خلالها شيئًا وتحجج بالتعسر الشديد. فاصطبرت عليه وأمهلته عامين آخرين واشترطت في العقد هذه المرة في حالة عدم السداد في الموعد أن يكون لي مطلق الحق ببيع الشاليه وتطهير العقار من الرهن، ووافق هو على ذلك ووقّع. نشبت بيننا بعض الخلافات خلال السنتين، وفي آخر المهلة بدأ في سداد جزء يسير من المبلغ وظل يرسل إليّ دفعات صغيرة، فرأيت منه جدية الرغبة في السداد فاصطبرت عليه مرة أخرى حسبة لله ومراعاة لأنه أخي الأكبر الذي رباني وساعدني في مصاريف زوجي بعد وفاة جدك عبدالنواب رحمه الله. والآن أنتم بين خيارين؛ إما سداد باقي المبلغ، أو عرض الشاليه للبيع.

- لا يا عمي، لا تعرضه للبيع، وأنا أعدك بسداد باقي المبلغ قبل نهاية هذا العام بإذن الله.

نتيجة لذلك الخبر الصادم الذي وقع على تميم كالجبل لم يستطع الوفاء بعهده لكلاهما لما يزيد عن عام كامل، وبالكاد أخذها للمرة الأولى لأداء مناسك العمرة في شهر رمضان عام 1436/ يونيو 2015، وليؤدي هو عمرة أخرى عن والده.

ومع انتهاء هذا العام بدأت الأمور تستقر وتهدأ؛ فقد أعاد تميم ترتيب أوراقه ومراجعة مسؤولياته وألوياته؛ فباع شركة البرمجيات الخاصة به، وسدد الدين لعمّه وفسخ عقد البيع. وتفرغ تمامًا لإدارة تجارة والده، واستعان بصديقه ماجد للتسويق لها، والذي نجح في وضع إستراتيجية متطورة ورؤية مستقبلية جديدة. كذلك فقد أنهى تميم كل تعقيدات الميراث وأكرم والدته وأخاه ولم يبخسهما حقهما شيئًا.

القاهرة، الخميس 3 مارس 2016

مع بداية هذا العام، حدثت انفراجة كبيرة لتميم في نشاطه التجاري وبدأت الخطة التسويقية تُوّقي ثمارها، حتى إنه بدأ يخطط للتوسع بافتتاح فرعٍ ثانٍ في القاهرة الجديدة وثالثٍ في مدينة 6 أكتوبر، ووجد أن الوقت قد حان للوفاء بعهده لكلارا.

ففي مساء هذا اليوم، بعد عودته من العمل، وهم على طاولة العشاء يتجادبون أطرف الحديث، باغت تميم مارجاريتا بقوله:

- ما رأيك مارجاريتا في الذهاب هذا العام في رحلة إلى روسيا؟

- مؤكد أنك تمزح!

- أبدأ، والله لا أمزح.

- أهذا معقول؟! كأنك تعلم كم أشتاق إلى هذه الرحلة منذ وقت طويل، وأنه لم يَحُلْ بيني وبينها إلا المرض وعدم القدرة على السفر بمفردي.

- وأنا مستعد لتحقيق أمنيتك عزيزتي، فقط حددي الوقت المناسب

مع كلارا.

- أنا لا أصدق! ما رأيك كلارا؟

- تميم جادٌ فيما يقول لك يا أمي، وقد وعدني بهذا منذ قرابة عامين لولا الضائقة التي مر بها. فأى وقت ترغبينه يا حبيبتى، أنا أيضاً مستعدة.
- لِنَرَ إِذْن؛ فعندي في المركز دورة تدريبية تنتهي آخر هذا الشهر، فما رأيكما في الشهر القادم؟

فسألها تميم:

- وهل الطقس في أوكرانيا في شهر إبريل ملائم للسفر؟
- أوكرانيا؟؟

لم يكمل تميم سؤاله حتى استقبل ركلة بقدم كلارا من أسفل المنضدة فانتبه، فأجاب مارجاريتا سريعاً مستدرجاً الأمر:
- هل قلت أوكرانيا؟ لا أنا أقصد روسيا بالتأكيد.
- نعم؛ الطقس ربيعي بارد في روسيا في شهر إبريل.
- لا بأس، ما رأيك في قضاء ثلاثة أسابيع هناك؟
- رائع!

- اتفقنا. لو في إمكانكِ كلارا أن تحجزني لنا الطيران، وحددي لنا التوقيت، لأرتب حالي في العمل.
- اتفقنا.

تأكد الحجز يوم الأربعاء الثلاثين من شهر مارس؛ عادت كلارا من مكتب الطيران واحتفظت بالتذاكر في درج التسريحة. أغلقت باب الغرفة عليها وعلى تميم، ثم دخلا موقع chernobyl-tours.com ليحجزا رحلة بريبيات، واختارا لها يوم الأحد 10 إبريل.

موسكو، الأربعاء 6 إبريل 2016

لما وُطئت قدما مارجاريتا مطار موسكو أخذت نفسًا عميقًا استردت به عافيتها، ثم استقل الثلاثة ياندكس تاكسي Yandex إلى البيت القديم في شارع كومسومولسكايا بيرولووك. دخلوا المنزل ووضعوا أمتعتهم وأزالوا الملاءات البيضاء عن الأثاث، فأصبح البيت أهلًا للمبيت، فقط يحتاج إلى بعض التنظيف السطحي.

ابتدرت مارجاريتا رحلتها بعد الراحة بزيارة قبر فيكتور، ثم أمضوا أسبوعهم الأول في الاستجمام والتنزه وزيارة بعض الأصدقاء.

مساء يوم الأربعاء، بعد جلسة لطيفة في مقهى ستارباكس بشارع بريسنينسكايا Presnenskaya، وفور العودة إلى المنزل، فوجئت مارجاريتا بهدية رقيقة من تميم وكلارا؛ باقة ورود مع ظرفٍ وردي كُتِبَ عليه بخط كلارا الجميل رسالة حب وتقدير إلى مارجاريتا. أخذت مارجاريتا الهدية بامتنان كبير، ثم سألتها:

- ماذا في هذا الظرف؟

أجابتها كلارا بأن تفتحه وتري بنفسها.

فتحته مارجاريتا بترقب، فوجدتها رحلة طيران مدتها أربعة أيام عودة وإياباً إلى كيف، فسألت كلارا:

- لماذا سنذهب إلى أوكرانيا كلارا؟ هل الجنسية في حاجة إلى تجديد؟

- لا يا أمي، ولكن... سننطلق من هناك في رحلة إلى برييات.

- برييات!!

- نعم يا أمي، برييات؛ سنذهب في زيارة سياحية إلى المدينة.

- يا ري! هل أنت جادة فيما تقولين؟!

- بالتأكيد يا أمي؛ اتفقت مع تميم منذ عامين تقريباً على ترتيب هذه

الرحلة وإهدائك إياها. صراحة يا أمي منذ أن قصت له مدى اشتياقك

لزيارة روسيا وهو يشجعني جداً على هذه الرحلة وعلى اقتراحي بزيارة

برييات واجتهد كثيراً لتحقيقها.

- أنا لا أصدق! كم أنتما وفيان يا ولديّ.

انهمرت دموع مارجاريتا وارتمت في حضن تميم وكلارا، اللذين لم يتمالكا

هما أيضاً دموعهما.

استجمعت مارجاريتا قوتها وجففت دموعها، وقالت:

- لم أتخيل أبداً في يوم أني سأعود إلى هذا المكان بعد كثرة الوعود التي

وعدنا بها السوفيت ثم تركونا نلقى مصائرنا بأنفسنا.

ثم وجهت كلامها لميم وقالت:

- أنت كابدت كثيراً يا بني لإسعادي أنا وابنتي، لا أصدق كيف أنك

بهذه الرقة والطهر وبهذا القلب النقي، أنت لست ملزماً بأن تفعل شيئاً

من هذا أو تشق على نفسك وتتكبد كل هذه المصاريف! أشعر بالفخر
لأني أحسنت اختيار زوج لابنتي، أشكرك يا تميم.

- تشكريني على ماذا يا أمي، أنا أحببتك وابنتك بصدق، وهذا أقل
ما يمكن فعله لكي أعبّر لك عن حبي وعرفاني. هيا، دعينا من هذا الآن،
فلدينا يومان آخران في موسكو نستعد فيهما للرحلة، ثم نعود بعد أربعة
أيام، ونكمل أسبوعًا آخرَ هنا، ثم نعود إلى القاهرة بسلام.
أمضت مارجاريتا ليلتها في سريرها تتأمل صورتها مع فيكتور مسترجعة
شريط الذكريات بحلوه ومُرّه، تُقلّب وسادتها المغرقة بالدموع.

أوكرانيا، بريبيات، الأحد 10 إبريل 2016

كانت نقطة الالتقاء في كييف بجوار محطة القطار في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا لتسجيل الحضور ومراجعة البيانات، والتأكد من الالتزام بمعايير السلامة المنصوص عليها من ارتداء سترة أو قميص بأكمام طويلة، وسراويل وأحذية تغطي القدم بالكامل، ثم استقلال الحافلة في تمام الساعة الثامنة والاتجاه شمالاً مسافة 140 كم إلى منطقة تشيرنوبل المحظورة.

عند الوصول، مرَّ الفوج بنقطة التفتيش الأمنية بقرية ديتياتكي Dytiatky لإبراز جوازات السفر التي لا يمكنهم بحال المرور بدونها بدأت الجولة بزيارة المفاعل الرابع المتسبب في الكارثة، والمسموح بالاقتراب منه بمسافة 300 متر لا أكثر، ومشاهدة التابوت الأسمتي العملاق الذي تم بناؤه لتغليف المفاعل الرابع لمنع تسرب الإشعاع، والذي تعرض للتشققات واستمرت أعمال البناء والصيانة فيه حتى عام 2015.

انتقلوا بعد ذلك لزيارة عدد من المواقع ضمن برنامج الرحلة؛ فتوجهوا لزيارة محطة رادار دوجا DUGA العسكرية السرية، ووحدة المطافئ الرئيسية بتشيرنوبل، والتي كان يعمل فيها فيكتور، والمستشفى التي انتقل

إليها المصابون. ثم انتقلوا لزيارة «الغابة الحمراء» التي اكتسبت اسمها من أشجار الصنوبر التي اصطبغت باللون الأحمر المتوهج بفعل الإشعاع. أعقب ذلك تناولهم لوجبة الغداء في مطعم آمن بتشيرنوبل، والذي يشترط قبل دخوله المرور ببوابة أمان للكشف عن الإشعاع بأجسام الزائرين.

وصلت الرحلة بعد ذلك إلى مدينة برييات، المحطة الأهم لمارجارتا وكلارا، وقد صارت مدينة أشباح موحشة. كانت لا تزال زينة الاحتفالات بعيد العمال تلمع في طرقاتها، ومبانيها بمعمارها الكابوسي الكئيب توحى بأن السوفييت قد بُعثوا من جديد.

تجوّل الفوج بين شوارعها ومبانيها المهجورة، ومرّوا بأبرز معالمها؛ كالبريوزكا الذي كانت تعمل فيه مارجارتا، وبعض المحال التجارية، وحمّام السباحة المغطى «لازورني» Lazurny المنشأ بالمعايير الأولمبية، وبعض دور الحضّانة المكدسة بسرائر الأطفال الصدئة، وبأقنعة الغاز والعرائس البلاستيكية المشوهة بفعل الإشعاع، والتي صارت أشبه بعرائس الفودو المخيفة. ثم انتقلوا لزيارة بعض المدارس حيث الكتب المدرسية تغطي الأرضيات وما زال بعضها في مواضعها على مكاتب الطلّاب، وكأن جرس الفسحة قد رنّ للتو. ثم توجهوا لأخذ جولة في حديقة الملاهي الخربة، وتفقد عجلتها الضخمة وسياراتها المتصادمة التي تعتبر أبرز معالم المدينة، بل وأيقونة تشيرنوبل السياحية.

في الطريق إلى حديقة الملاهي، تلمح مارجارتا عن يمين الطريق روضة الأطفال التي كانت ترسل إليها كلارا منذ ثلاثين عامًا مضت، فقبضت على يد ابنتها بقوة تسترجع يوم الخامس والعشرين من إبريل 1986، وتقص

عليها يوم اصطحبتها من هذه الروضة إلى المنزل وأتت إليها بثمرات
الفراولة التي تحبها.

وصلوا إلى حديقة الملاهي، وقد اعتلى الران عجلتها الكبيرة وسياراتها
المتصادمة، فأمهلم المرشد بعض الوقت ليتأملوها ويتجولوا فيها، فقالت
مارجاريتا لكلارا:

- في اليوم ذاته ونحن عائدان إلى المنزل كنت تُشيرين إلى هذه العجلة
وتطلبين ركوبها، ووعدتك بأن نفعل ذلك يوم افتتاحها المرتقب بعد
خمسة أيام، والذي لم يتم حتى هذه اللحظة.
فسألتهما كلارا:

- أين يقع منزلنا يا أمي؟

- لحظات لعلي أتذكر... نعم؛ يقع هنا خلف هذه الأشجار، في مبنى

117أ.

- ألا يمكننا أن نذهب إليه؟

- كم أتمنى ذلك يا ابنتي، لكن لا أظنه مسموحًا، فمسارات الرحلة
محددة كما تعلمين.

- وماذا في ذلك يا أمي؟ فقط أخشى أن نسأل المرشد عن ذلك فيرفض
ويتنبّه لنا. أقول لك؛ بعض المغامرة لن يضر، ولحسن الحظ الفوج يضم
خمسة عشر فردًا غيرنا، فلو أحسنًا التصرف وانطلقنا في التوقيت المناسب
لا أظن المرشد سينتبه إلى الأمر سريعًا. ولا تخافي فسيكون معنا جهاز
Terra-P الذي استأجرناه لقياس الجرعات الإشعاعية التي نتعرض لها في
كل مكان خلال الرحلة، بذلك لن نعرض أنفسنا للخطر لو حدث وارتفع
المؤشر عن المسموح به.

- هيا لنصعد يا أمي.

- نصعد إلى أين يا كلارا؟! إنها سبعة أدوار؟

- وما الإشكال يا أمي، هيا سريعًا؛ لكيلا لا تتأخر.

- تمهّلي كلارا! فهذا قد يوقعنا في مشكلة كبيرة مع الأمن؛ لأني كما علمت من مطالعتي للأخبار أن الحكومة الأوكرانية بعد أن سمحت رسميًا بالرحلات السياحية لمنطقة تشيرنوبل في عام 2011، سرعان ما منعت السائحين من دخول المباني بدعوى الحفاظ على سلامتهم.

- يا أمي لا تضيعي الوقت أكثر من ذلك في هذا الجدل، هذه فرصة لن تتكرر، لو رأنا أحد؛ فاتركي الأمر لي.

اندفعت كلارا إلى داخل المبنى فلم تجد مارجاريتا مفرًا من اللحاق بها، فتبعتها بقلب مسرور متوجس خيفة. في دقائق معدودة وصلت إلى الدور الثامن. لم يعد يفصل بين مارجاريتا وبين ماضيها إلا بضع خطوات.

- أي شقة يا أمي؟

- سامحك الله يا كلارا! لا أستطيع التقاط أنفاسي ومفاصلي تؤلمني جدًّا! هنا جهة اليمين، رقم 76.

كانت أبواب كل الشقق مفتحة، وعلى باب مارجاريتا المفتوح كانت الورقة ما تزال ملصقة، والتي كانت قد كتبت عليها وقت المغادرة:

«أيها العابر العزيز، لا تبحث عن مقتنيات ثمينة لم تمتلكها، يمكنك استخدام أي شيء، لكن لا تسرق، سنعود».

لكن يبدو أن السوفييت لم يوفوا بوعودهم بحماية الممتلكات، والعابر لم يقتنع برسالة مارجاريتا، وترك شقّتها خاوية على عروشها مثل باقي

الشقق، حتى إن أحدهم أرق مضجع صوفيا المستلقية على الأريكة منذ رحيل كلارا فأخذ الأريكة وطرح صوفيا أرضاً.

أشارت مارجاريتا إلى الدمية وقالت:

- هذه يا ابنتي دميتك صوفيا، جذبتها من يدك يوم أن غادرنا وألقيت بها على أريكة حمراء كانت موجودة هنا، وتحملت صراخك حيث مُنِعنا من أن نأخذها وكل ما هو غير ضروري في نظرهم.

- ياه يا أمي، لقد أصبحت مرعبة وكأنها تتجسد فيها روح شريرة.

- المدينة كلها يا ابنتي صارت كذلك!

ظلت كلارا واقفة تتأمل في صوفيا، فتركتها مارجاريتا ودخلت لتتفقد غرفة نومها، التي شهدت العناق الأخير بينها وبين زوجها.

رغم التحذيرات الشديدة بعدم لمس أي شيء تفادياً لأي ضرر، قامت كلارا بإخراج منديل ورقي تحتفظ به في جيبتها لتلتقط به صوفيا من الأرض وترفعها إلى جوار النافذة، ثم أخرجت من جيبتها هاتفها المحمول لتلتقط صوراً لصوفيا وتأخذ معها سيلفي.

- هيا يا ابنتي، لقد تأخرنا كثيراً.

- حسناً يا أمي، هيا بنا.

نزلتا سريعاً وغادرتا المبنى، وتسللتا عبر الأشجار إلى حديقة الملاهي. كان الفوج قد انتهى من جولته داخل الحديقة، وبدأ المرشد في التساؤل والبحث عنهما، فما إن دخلتا الحديقة حتى لاحظهما المرشد وأقبل عليهما مهرولاً، ليسألهما في فزع وبنبرة غضب:

- أين كنتما؟

- فأجابت كلارا:

- كنا نتجول هنا في الشارع الخلفي.

- ولكنكما تعلمان جيداً أن هذا ممنوع منعاً باتاً ومخالف لضوابط الجولة، وقد يتسبب لي بضرر ومعاقبة على الإخلال بقوانين العمل. وللعلم لو ترتب على هذا الموقف شيء يضر بسلامتكما فلا تلوما إلا أنفسكما؛ فقد وقّعتما تعهداً بذلك قبل الرحلة.

فأجابته كلارا بابتسامة هادئة:

- لا تخف؛ فلن نخبر أحداً. ولا تقلق على سلامتنا؛ فنحن من شعب

تشيرونوبل!

سكت المرشد قليلاً وأخذ يدقق في ملامح مارجاريتا بشكل أثار حفيظتها، فسألته بضجر:

- خيراً؟

- أبداً أبداً لا شيء، معذرة سيدي، هل ممكن أن تخبريني باسمك؟

- مارجاريتا.

- مارجاريتا! مارجاريتا من؟

- مارجاريتا ديميتري.

- ربّاه! مارجاريتا زوجة العم فيكتور!

ارتعدت مارجاريتا فور ذكر اسم زوجها، فقالت له في ذعر:

- نعم! هل تعرفني؟!

- تمام المعرفة يا عمّة.

- من أنت؟!

- أنا يوري ابن أنطون صديق العم فيكتور.

- حقًا! أشعر بدوار شديد، كيف حالك يا يوري؟ أراك رجلًا كبيرًا الآن.

- نعم؛ بلغت من العمر 42 عامًا. استندي على ذراعي يا عمّة، تعالي لنجلس.

- لا بأس، أنا بخير الآن. كيف حال والديك؛ أنطون ونيينا؟

- أُمِّي توفيت منذ وقت كبير، ووالدي أنطون يعيش معي في كييف

أنا وزوجتي وبناتي الثلاث، ستكون فرصة طيبة ومفاجأة سارة له لو عدت معي اليوم إلى المنزل وقبلت ما دعوتني للعشاء.

- هذه دعوة كريمة بالفعل نابعة من نبل أخلاقكم المعهود، لكن لا

أظن أننا سنتمكن من ذلك الليلة، فالوقت سيكون متأخرًا ونحن في غاية الإجهاد. لا يزال أماننا يومان في كييف، من الممكن أن نلتقي في إحداها.

- رائع، غدًا ليس في جدول رحلات، ما رأيك في تشریفنا بالزيارة في

الصباح الباكر لتناول الإفطار معًا؟

- ليس عندي ما يمنع، ما رأيك كلارا؟

- لنرى رأي تميم.

توجّه إليها يوري بالحديث فقال:

- أتذكرك جيدًا كلارا حينما كنتِ طفلة صغيرة مشاكسة، لعبنا مرارًا في

البيت وفي حديقة الأطفال المجاورة.

- لا أتذكر هذه الأيام للأسف، لكن مؤكد أنها كانت أيامًا جميلة، يا

لها من صدفة عجيبة يا يوري.

- نعم؛ هي عجيبة لا شك، هل تميم زوجك؟

- نعم.

- اسمه غير مألوف.

- نعم؛ فهو مصري.

- حقًا! جميل، لنذهب لأتعرف به.

- بالتأكيد، هيا بنا.

كان تميم لا يزال واقفًا بجوار عربات الملاهي المتصادمة الصدئة يتأملها، وقد بدت عليه الحيرة والقلق لتأخر زوجته وأمها. في اللحظة التي أعاد فيها النظر نحو الأشجار التي تسَلَّا خلالها وجدهما مقبلين برفقة المرشد، فازداد قلقه وارتبكه، حتى عندما وجده يتسم في وجهه ويصافحه بحرارة:

- كيف حالك سيد تميم، سعيد بزيارتك.

بادلته تميم الابتسامة بابتسامة حذرة ونظر إلى كلارا ولسان حاله يقول:
من هذا؟ فأجابته:

- تخيل الصدفة يا تميم، هذا يوري ابن العم أنطون صديق والدي وجارنا في برييات.

- حقًا! أهذا معقول؟ أهلاً بك يا يوري، سعيد بمعرفتك.

- وأنا كذلك يا رفيق، ولن تكتمل سعادتي إلا بقبولك دعوتي على الإفطار في منزلي بكيف غدًا في التاسعة صباحًا.

فنظر تميم إلى مارجاريتا وكلارا ليعرف رأيهما، فوجدهما يبديان الرغبة في ذلك، فوافق تميم على الفور. فقالت مارجاريتا إلى يوري ضاحكة:
- لكن احذر، ابنتي وميم لا يأكلان إلا «الطعام الحلال»، فهما مسلمان،

فلا تجهد زوجتك فيما لن يأكله.

فأجاب يوري باندهاش:

- حقًا كلارا؟! حسنًا، وما الإشكال في هذا؟ سنكون على أتم استعداد
بإفطار يليق بهذه الصدفة العظيمة.

- شكرًا جزيلاً يوري، إذن اتفقنا.

استكمل الجميع الرحلة التي انتهت في حدود السابعة مساءً بالمرور
لمرة أخيرة عبر البوابات المخصصة للكشف عن الإشعاع للاطمئنان على
سلامة الزائرين قبل المغادرة. خرج الجميع بسلام ليستقلوا الحافلة التي
تعود بهم إلى كييف في التاسعة مساءً. وما إن وصلوا الفندق حتى استلقى
كل منهم على سريره بغير كلام. استسلم تيم وكلارا إلى النوم سريعًا بينما
ظلت مارجاريتا تفكر فيما يخفيه لها القدر غدًا.

أوكرانيا، كييف، الاثنين 11 إبريل 2016

في تمام الساعة التاسعة صباحًا، كان تميم يطرق الباب. فتح لهم يوري واستقبلهم وزوجته المهذبة بحفاوة كبيرة وطلب منهم الدخول إلى غرفة المعيشة حيث كان أنطون ينتظرهم على أحر من الجمر. دخلوا فوجدوه واقفًا لاستقبالهم بابتسامة عريضة. كان رجلًا سمينًا متوسط الطول وردي البشرة يعلو الشيب رأسه، وتبدو عليه أمارات الطيبة وخفة الظل. سلم عليهم بحرارة اغرورقت معها عيناه بالدمع، ثم توجهوا للجلوس على طاولة الطعام، فبادرته مارجاريتا بالكلام:

- تبدلت ملامحك كثيرًا أنطون، لكن روحك الطيبة لم تنطفئ.

- وأنت كذلك عزيزي مارجاريتا.

- آخر مرة التقينا كان في منزلنا منذ ثلاثين سنة، كنا نتناول العشاء وكانت حبيبتي الطيبة نينا ويوري برفقتك، كان لا يزال صبيًا جميلًا يلعب مع كلارا على الأرض.

- نعم؛ أتذكر هذا اليوم جيدًا، كنا نحب طعامك جدًّا، وكانت كلارا دائماً الشكوى من يوري بأنه كان يغيظها بضرب دميتها، لا أذكر ما كان اسمها، كلارا؟

- صوفيا.

- نعم؛ الآن أتذكر، كانت جميلة وشقراء.

- عثرت عليها أمس لما تسللت إلى المنزل وأنا وأمي قبل أن يكتشف يوري أمرنا، والتقطت معها بعض الصور، لكن لم أستطع حملها معي للأسف.

نظر إليها يوري وقال:

- سامحكما الله، كان في الإمكان أن أتحوّل للتحقيق ليلة أمس بسببكما.

فضحك الجميع، ثم أردفت مارجاريتا:

- كانت الحياة هادئة وجميلة؛ بعد تلك الجلسة الأخيرة بأقل من أسبوع، ليلة انفجار تشيرنوبل، طلب مني فيكتور قبل الانصراف إلى عمله أن أذهب إلى متجرك في اليوم التالي لأستلم منك شيئاً خاصاً بكلارا، ثم ذهب إلى مصيره المؤلم، وزال الأمر تماماً عن ذهني حتى رأيت يوري أمس.

- نعم؛ لكن أنا لم أنس، إلا أن صبيحة الانفجار أخذت أسرتي واستقللت السيارة وتركت متاعي الخفيف وهرعت إلى هذا المنزل، منزل الوالد، بغير تفكير أو انتظار أخبار، فقط ليقيني التام بأنها كارثة حلّت على المدينة لن يفصح السوفييت عن حقيقتها ولو بعد حين، فجئت لأتابع المهزلة الإخبارية من هنا. سعيت للوصول إليك للاطمئنان، وللأسف في ظل انقطاع الاتصالات والتخبط الكائن حينها فشلت في الوصول إليك، ولم يصلني خبر فيكتور إلا بعد قرابة شهرين، حينما خرج من المستشفى أخي بيترو زميل فيكتور في وحدة المطافئ، والذي أصيب بحروق خطيرة جراء الحريق، خرج ليستكمل علاجه هنا في المنزل، حتى مات بعد ذلك

بشهور قليلة تأثراً بالسموم الإشعاعية. كانت محنة عظيمة مرَّ بها زوجك فيكتور، أسأل الله القدير أن ينتقم له من سايمون الملعون.

- من سايمون، وممَّ ينتقم منه الرب؟ لا أفهمك. ألم يكن سايمون هذا زميل فيكتور في المطافئ؟ ماذا فعل؟ هل تخلى عنه وقت الكارثة؟ هل أقمحه في الحريق لينجو بنفسه؟ أم ماذا؟ أخبرني أنطون؟

- هل أنتِ جادة في أسئلتك مارجاريتا؟ أبالله لا تعرفين ماذا فعل هذا الحقير؟

- أبداً، أقسم لك!

!!!

- ماذا بك أنطون، أنت تحرق أعصابي هكذا!

- حتى لي أخي بيترو قبل وفاته بأنه في هذه الليلة كان رجال الوردية يتسامرون ويتمازحون حتى اقتحم عليهم قبل الانفجار بساعتين أفراد من الـ KGB وسألوهم عن فيكتور، فلاحظ بيترو سايمون يغمز إليهم مشيراً إلى زوجك، فاقتادوه بالقوة إلى مكان غير معلوم.

- هاها!!!

- نعم؛ عرفت منه لاحقاً أنه كان متهمًا بالتخابر لصالح الـ CIA...

قطعت كلارا حديثه وسألته بحدة:

- عرفت ممَّن؟؟

- من فيكتور.

- أيي؟! هل هو حيٌّ؟؟!

- نعم حبيبتي!

في نفس واحد صرخت كلارا وأمها:

- حيّ!!!

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وترك تيمم ويوري الطعام وظلا شاهرين فاهيهما يتابعان الموقف بذهول. قالت مارجاريتا بتخبط:
- ولم لم تخبرني يا يوري بالأمس؟ ولم لم تنطق بهذا يا أنطون فور أن رأيتنا؟!

- عزيزتي صدقيني، أنا ويوري انقطع حديثنا عن هذا الأمر منذ سنوات، ولم يبدر إلى ذهننا أنك لا تعلمين هذا، اهدي أرجوك.
- لقد انقطعت الأنفاس وحبال الرجاء وقتها في البحث والسؤال عن فيكتور، ولم أنتقل من المخيم للعيش مع أخي ألبرت في موسكو حتى أكد لي أحد الضباط خبر مصرعه في الحريق، وأنه وباقي الأبطال تم دفنهم في مقبرة ميتينسكو وانتهى الأمر على ذلك، لأواجه قسوة الحياة ووحشتها وحدي أنا وابنتي.

- هذا ما أخبرني به بيترو؛ وظللت بعد ذلك لا أعلم شيئاً جديداً عن فيكتور حتى أُفْرِجَ عنه في 2008. وجدته يطرق هذا الباب وهو في حالة إنهاك شديد؛ دخل وبكى بكاءً مريراً وأخذ قسطاً وافياً من الراحة ثم انصرف. كان يخرج بشكل يومي للبحث والسؤال عنك وعن ابنتك لكن بغير جدوى، فعاش بعد ذلك سنين عمره مكتئباً يائساً ينتظر الموت.

- كيف عرفت كل هذا؟

- هو من أخبرني.

- كيف ذلك؟ هل التقيته؟

- بل ألتقيه.

- تلتقيه!

- نعم؛ أذهب لزيارته والاطمئنان عليه وتلبية احتياجاته أول كل شهر.

- وأين ذلك؟

- هو يعيش منذ خروجه في دار للمسنين هنا في كيبف، تبعد كثيراً

عن المنزل.

فقاطعته كلارا مرة أخرى:

- وماذا ننتظر إذن؟ لماذا لا نذهب إليه الآن؟

نظر أنطون في ساعته وقال لهم:

- لا أظن أن هناك مشكلة، فالساعة لا تزال العاشرة إلا الربع، ما رأيك

يا يوري؟

- أنا مستعد يا أبي، أنزل فوراً لتجهيز السيارة وأنتظركم فيها، لكن

أكملوا إفطاركم أولاً.

فقال له مارجاريتا بلهفة:

- اعذرنى يا بني، لكن لو أنت مكاني هل ستنتظر إنهاء الطعام؟

- معك حق يا عمّة، إذن لنذهب الآن.

كانت الدار تبعد مسافة 75 كيلومتراً من المنزل قطعوها بالسيارة في

ساعة. وصلوا فتقدمهم أنطون حيث كان الناس يعرفونه في الدار تمام

المعرفة، فتوجّه إلى موظف الاستقبال الذي سلّم عليه بترحاب، واستأذنهم

بالجلوس في الصالة:

- كيف حالك فانكو، هل سيد فيكتور في غرفته؟
- نعم؛ هو في الغرفة، لم يخرج اليوم للإفطار مع باقي النزلاء.
- هل من ممكن إخباره بأن بعض الأصدقاء جاؤوا لزيارته؟
- لحظات أتصل به لزي هل هو مستيقظ ويرغب في الزيارة أم لا.
- يرفع فانكو سماعة الهاتف متصلًا بالغرفة:
- صباح الخير سيد فيكتور...

كانت مارجاريتا تقف مذهولة لا تصدق أن زوجها يجيب الآن على هذا الهاتف، كاد يتوقف قلبها، وشعرت بثقل شديد في قدميها فتشبثت بتميم وقبضت على ذراعه بقوة، حتى أذن لهم موظف الاستقبال بالتوجه إلى الغرفة، لم تقوَ مارجاريتا على المشي بمفردها، وظلت متشبثة بذراع تميم، وكلارا تضمها من الناحية الأخرى، وأمامهم يتقدم أنطون ويوري. طرق أنطون الباب وفتح ودخل وهم من خلفه، فنادى على فيكتور بصوته الجهوري وطريقته المعتادة:

- صديقي العزيز فيكتور، جئتكم بمفاجأة فلننظر كيف ستكافئني عنها.

كان فيكتور يجلس على أريكة في أقصى الغرفة ينظر إلى النافذة المطلة على الحديقة والتي تضيء له الغرفة بضوء خافت، كان يدفئ رأسه الأصلع بطاقيّة من الصوف، وتبدو عليه النحافة الشديدة وتقوُّس الظهر، التفت إلى صوت أنطون فاستدار ورمق من أسفل النظارة لينظر من القادم.

كانت قوى مارجاريتا قد خارت تمامًا ولم تقوَ قدماها على حملها، فأخذ تميم وكلارا يجرجرانها إلى أن اقتربوا من فيكتور الذي هاله هذا المنظر ودبَّ في قلبه الخوف، لم يتبين له من خفوت الضوء وضعف البصر

من هؤلاء الضيوف البائسين، حتى جثت مارجاريتا أمامه على ركبتيها
وصرخت باسمه: فيكتور! ثم احتضنته وانهارت في البكاء، ومن خلفها كلارا
التي ارتمت في حضنه صارخةً هي الأخرى: أبي!

بدوره لم يتمالك فيكتور أعصابه وصرخ من الصدمة قابضًا بيديه على
رأسه، ثم شعر بضيق في صدره، فطلب منهم أن يحملوه إلى السرير؛ لأنه
لا يستطيع التقاط أنفاسه.

حمله تيمم ويوري إلى السرير، فأشار بيده المرتعشة إلى الدرج المجاور
للسرير أن افتحوه، ففتحه تيمم ليجد بداخله بخاخة ربو فناوله إياها
بسرعة، ثم رجع خطوات إلى الخلف ليقف إلى جوار يوري وأبيه ليتأمل
مشهدًا لا يراه إلا في الميلودراما المسرحية.

أخذ فيكتور شهيقًا عميقًا من البخاخة ثم أخرج زفيرًا بطيئًا وكرر
العملية مرتين، ثم سكت تمامًا ليسترخي. استعاد عافيته بعد دقائق،
فأصابه البكاء والخوف مجددًا وقال:

- كيف ذلك؟ ماذا يحدث هنا؟! هل أنت زوجتي مارجاريتا بحق؟
هل أنت ابنتي كلارا؟!

كانت مارجاريتا تجلس بجواره على السرير، فقبضت بيديها على
ذراعيه وأجابته بانفعال:

- نعم يا فيكتور؛ أنا زوجتك مارجاريتا، وهذه كلارا ابنتك، ثلاثين
سنة وأنا أظنك في تعداد الموتي وأذهب لزيارة قبرك، كيف تركتنا طيلة
هذه السنوات تلطمنا الأيام واحدًا تلو الآخر؟ لأجل ماذا فعلت هذا بنا
وبنفسك؟

- قبري؟ أخبريني، هل تزوجت يا مارجاريتا؟

- لا، لم يحدث، ولم أفكر يوماً في غيرك قط.

- الحمد لله. لا يا حبيبتى أنا لم أترككما ولم أرتكب جريمة، لا تصدقي ما يقال لك. ماذا أخبرتهما يا أنطون؟

- أبداً يا صديقي، لم تسعفني الظروف لأن أخبرهما بكل التفاصيل، لم ألتقِ بهما جاريتم وكلاهما إلا منذ سويغات، وهول الصدمة لما علما بحياتك طغى على كل حديث.

- حبيبتى! بالفعل تواصلت معي المخابرات الأمريكية بواسطة أحد زملاء العمل، لكنني لم أقبل أن أبيع نفسي رغم الإغراءات التي عرضت عليّ، والفاقة التي كنا مُرُّ بها لو تذكربن، بل ورغم كرهني الشديد للسوفييت. وكما تعلمين أني لا أملك لساني ولا أتحكم به، وكثيراً ما كنت أتكلم بأريحية مع زملائي حول إعجابي بالحياة الأمريكية والمجتمعات الغربية وعن مزايا الانفتاح وعبوبه، بل وكنت دائم اللمز بقيادة السوفييت والحزب الشيوعي. كان لي زميل تعرفينه، اسمه سامون، يحرص على السماع والمناقشة، وكان دائماً يبدي إعجاباً بشجاعتي واهتماماً كبيراً وتأبيداً لكل ما أقول. حتى إنه في يوم اختلى بي وعرض عليّ صراحة التعاون مثله مع الـ CIA وإمدادهم بمعلومات عن النشاط النووي في المفاعل، وعن رادار دوجا الضخم، وعن الحياة في داخل برييات، مقابل مكافآت مالية كبيرة، إلا أني غضبت ورفضت رفضاً قاطعاً ونهرته عن الحديث معي مرة أخرى وإلا أبلغت عنه، فاستبقني ووشى بي عند أحد القادة الذين كان يتملقهم وينافقهم وذكر له ما كنت أقول في حقه تأميناً لنفسه، وقد بلغني هذا الأمر فعلمت أني هالك لا محالة، لشديد بطش هذا القائد. وبالفعل لم يمضِ يومان حتى صرت في خبر كان.

في هذين اليومين كنت متخبطًا جدًّا في أفكارتي وقراراتي، لم أعلم أين الصواب؛ هل أخبرك بما حدث أم أتكنم عليه لعلمي بقلقك الشديد وانفعالاتك غير المحسوبة، ولم تكن لي طاقة بهلامك عليّ كذلك، فأثرت الصمت، علّ وعسى أن تكون غمة وتنجلي بعد حين. إلا أن الخوف من المصير المجهول كان يغلبني، والشعور بأني قد لا أرى كلارا مرة أخرى يقتلني، فقررت في اليوم السابق لاختفائي الذهاب إلى صديقنا أنطون لأحضر شيئًا لكلارا. ثم حدث ما حدث في الليلة التالية؛ ليلة انفجار تشيرنوبل، حيث تم اقتيادي إلى مكان مجهول، ذقت فيه كل ألوان العذاب، لأجد نفسي متهمًا رسميًا بعد ذلك بالتخابر مع الأمريكيان ومحكومًا عليّ بالسجن الطويل، وعلى ما يبدو أنهم أشاعوا خبر وفاتي في ظل الأحداث الملتهبة؛ لكيلا تزداد فضائحهم أمام المجتمع الدولي. ظلت حبس أربعة جدران ظلمًا وجورًا، حتى صدر بحقي عفو رئاسي في 2008. خرجت لا أعلم شيئًا عن أي شيء؛ لا أذكر من أصدقاء بريبيات إلا المخلص أنطون فذهبت إلى بيت والده في كييف، ثم قطعت الأرض بحثًا عنك وعن ابنتنا، سافرت إلى أخيك ألبرت في موسكو لأسأله عنك، فلم أجد منه ترحابًا، وأبلغني بما حدث بينكما من قطيعة تامة. سألت عنك في صحيفة كروكوديل التي عملت بها، فحصلت على عنوانك ولم أصل إلى أي معلومات أخرى، فطرتُ إلى العنوان فأبلغني بعض الجيران أنك غادرته إلى مصر منذ أسابيع قليلة. أصابني الجنون؛ لم أدري هل تزوجت أم ماذا حدث على وجه التحديد. اسودّت الدنيا في عيني، فعُدت إلى كييف خائبًا متحسرًا مسليًا نفسي بمزيد من سنوات الحزن والوحدة، عاودت السفر إلى موسكو بين الوقت والآخر لكن بلا جدوى، حتى دبّ اليأس في قلبي وخارت قواي واستسلمت للوحدة والموت البطيء، لم يؤازرنني في محنتي سوى أنطون وأسرته فكانوا

نعمَ الأصدقاء، لم يتخلوا عني قَط؛ كان أنطون دائم الزيارة والسعي في حاجتي هو وابنه، لكمّ تمّنت أن يصير يوري زوجك يومًا ما، كلارا!

- أبي! أنا تزوجت وأعيش في مصر منذ تسع سنين، وهذا زوجي تمّيم.

- حقًا! اعذرنّي يا تمّيم، لم أنتبه حتى اللحظة لأنّ أتعرّف بك، أقبل يا بني.

أقبل تمّيم وسلّم عليه بوجه محتقن تتدافع عليه ملامح الإحراج والغيرة، ثم استدرك فيكتور حديثه:

- ذكرت يا حبيبتي أنكما تعيشان في مصر منذ تسع سنين، فما الذي

أتى بكما اليوم؟

- كانت أمي تشتاق إلى زيارة بيتنا في موسكو، وعلمت وقتها بالصدفة

وأنا أبحث على الإنترنت أن برييات أصبحت مزارًا سياحيًا، فاتفقت أنا

وتمّيم أن نرتب لها زيارة إلى روسيا، تصحبها زيارة مفاجئة إلى أوكرانيا

ومنها إلى برييات، لم نكن نعلم أن القدر يخفي لنا اللقاء بيوري الذي

يعمل مرشدًا سياحيًا لرحلات تشيرنوبل، في الجولة تعرّف على ملامح أمي

ودعانا لزيارة العم أنطون في كييف، والذي عرّفنا بدروه بأنك حيٌّ ترزق

لله الحمد.

- ترتب عجيب لا يصدق عقل!

- صحيح، من يصدق كل هذا يا أبي؟!

- يا تمّيم! أستاذك يا بني أن تفتح الخزينة في دولاب الملابس هذا،

أدخل إليها الرقم السري: 1986، وأحضر العلبة التي بداخلها.

توجّه تمّيم مباشرة إلى الدولاب وقد بدأت نفسه تطيب بهذه الألفة

السريعة التي حدثت بينه وبين حمّيه. أدخل الأرقام وفتح الخزينة،

فوجد فيها بعض الأوراق والنقود وعلبة بنية صغيرة من القطيفة، فأخذها وأغلق الخزينة وعاد ليسلمها إلى فيكتور:

- تفضل يا عمي.

- أشكرك يا بني. أتدريين يا كلارا؛ لقد ظل أنطون محتفظًا بهذه العلبة طيلة 22 سنة، حتى التقيته بعد خروجي فسلمني إياها كما هي، وهي لك يا حبيبتى، افتحيها.

أخذت كلارا العلبة بترقب وفتحتها، فوجدت بداخلها خاتمًا ذهبيًا على شكل وردة، فوضعت يدها على فمها وشهقت من الفرحة، ثم عانقت أباه وقبّلته، فأردف قائلاً:

- حينما تخوفت يا ابنتي أن لا ألقاك مجددًا، أوصيت أنطون بشراء هذا الخاتم من متجر والده في كييف كهدية زواجك، وطلبت من أمك الذهاب إليه بعد يوم لاستلامه، ثم جرى ما جرى.

انحنى تيمم على رأس فيكتور ليقبّلها ثم قال له:

- وها قد جاء اليوم يا عمي الذي تتحقق فيه أمنيتك وترى كلارا عروسًا جميلة.

- نعم نعم؛ وأتمنى أن تكونا سعيدين في حياتكما معًا وأن تصون ابنتي جيدًا.

- بالتأكيد يا عمي، بل ولن تكتمل فرحتنا إلا بك.

قالت مارجاريتا بلهفة:

- من اللحظة لن أتركك أبدًا يا حبيبي مرة أخرى، ولن أخرج من هذا المكان إلا برفقتك.

- حقًا مارجاريتا؟

- حقًا فيكتور، سنخرج من هنا لنستكمل ما تبقى من عمرنا معًا في

البيت في موسكو.

فتدخل تيمم قائلاً:

- ولمّ موسكو يا أمي؟! ألا تأتيان للعيش معنا في القاهرة لترعاكما

ونسعد بصحبتكما؟ كلارا!

- نعم يا أمي أرجوك، فأنا لا أريد أن نفترق مرة أخرى.

سكتت قليلاً مارجاريتا، ثم قالت:

- اعذريني يا كلارا، اعذرني يا تيمم؛ فأنا أريد استعادة ذكرياتي مع

فيكتور، لدينا كثير مما يمكننا فعله والاستمتاع به في بلادنا.

فقال تيمم:

- وما المانع أن تمكثا في موسكو ما شئتما ثم تأتيا للعيش معنا في

القاهرة، وأعدكما بأن كل شيء سيكون جاهزاً لاستقبالكما؟ لا تتعجلا

الإجابة، المهم الآن هو أننا قد تبقى لنا يوم أخير في كييف نقوم فيه

بإنهاء إقامة الوالد في هذه الدار الكئيبة ثم نعود جميعاً إلى موسكو،

وهناك نفكر على مهل.

بكي فيكتور بحرقه وقال:

- نعم؛ أنا لا أريد أن أبقى هنا يوماً آخر، أتوسل إليكم لا تتركوني

أعيش وحيداً مرة أخرى.

فقالت كلارا:

- أبداً، لن نفعل هذا يا أبي، اطمئن.

ثم أتبعته مارجاريتا:

- سأبيت معك هنا هذه الليلة فيكتور لو سمحت لنا الدار بذلك، حتى يأتي تيمم وكلارا غدًا في الصباح لإتمام الإجراءات المطلوبة، لنعود ونبدأ معًا حياة جديدة سعيدة.

أحاط الجميع سرير فيكتور بكراسيهم، وظلت مارجاريتا تجلس بجواره، وخفّت البكاء وتعالّت الضحكات وعمّت البهجة والفرح الغرفة، حتى أقبل المساء جاء موعد الانصراف على الوعد باللقاء في الصباح الباكر.

في طريق العودة إلى الفندق خيم الصمت على الجميع بعد هذا اليوم الصاخب المشتعل بالأحداث، فلما وصلوا وسلموا، قالت مارجاريتا التي لم تتمكن من المبيت مع فيكتور:

- لم يخب ظني فيك قط يا أنطون، لساني بحق يعجز عن وصفك وشكرك، نعم الصديق أنت.

- لا تقولي هذا يا عزيزتي، فهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال دائمًا.

فور أن أغلقت وراءها باب الغرفة خرّت كلارا لله ساجدةً باكيةً شاكرةً لعظيم كرمه وفضله، ثم قامت فعانقت تيممًا عناقًا طويلًا ولسان حالها يقول: لم تكن لتكتمل سعادتي اليوم إلا بك. ثم استدارت إلى مارجاريتا واحتضنتها وترجّتها ألا يعيشوا متفرقين مرة أخرى.

أخذت حمامًا دافئًا يُرخي جسدها المُجهّد، ثم ارتدت ثوبًا فضفاضًا مريحًا، وألقت بظهرها المتعب على السرير، تقلّب في صورها التي التقطتها أول أمس في بريبيات مع صوفيا، وصورها التي التقطتها اليوم مع أبيها وأمها، ثم ارتدت الخاتم الذهبي في يدها والتقطت له صورة أخرى.

اختارت ثلاث صور وجمعتهم كولاج Collage في صورة واحدة لتنشرها عبر حساباتها على إنستاجرام وفيسبوك، معلقةً عليها:

«منذ 30 عامًا مضت كانت أمي تحملني على ذراع، وتحمل أغراضها الثقيلة على ذراع أخرى، مغادرةً هذا المنزل بسبب كارثة إشعاعية تسببت في إخلاء المدينة بالكامل إلى غير رجعة. كنت أبكي بكاء شديدًا لتركي دميتي صوفيا، والتي التقيت بها اليوم مجددًا في نفس المكان. ثلاثون عامًا مضت على انفجار تشيرنوبل الذي أودى بحياة الآلاف، بل دمَّر حياة الملايين إثر كارثة إشعاعية هي الأكبر بالتاريخ، سحقت زيف ادعاء السوفييت العدل والمساواة واحترام الإنسانية والاستخدام الآمن للتكنولوجيا. ثلاثون عامًا عشت محرومة من أبي الذي آمنت بأنه في تعداد من ماتوا وهو يؤدي عمله كرجل إطفاء كان من أول الحاضرين في موقع الحادث، حتى أكتشف اليوم أنه حيٌّ يرزق، في قصة عجائبية يحتاج سردها إلى صفحات طويلة، لا ألوم على من قرأها ولم يصدقها، فلو كنت أنا مكانه لتشككت. ثلاثون عامًا أعيش مع عدو نووي خفي، حرمت بسببه من أن تكون لي صغيرة غير صوفيا. ليلة السبت 26 إبريل من العام 1986؛ كانت ليلة تبدلت فيها الحياة».

#pripyat #chernobyl #ukraine #radioactive #humanity

القاهرة، الأربعاء 20 إبريل 2016

ودّعت كلارا والديها على وعد بجمع الشمل في القاهرة عن قريب. بعد خمس ساعات هبطت الطائرة العائدة من موسكو إلى أرض مطار القاهرة، وعاد الإرسال إلى هاتف كلارا المحمول، لتستقبل على الفيسبوك رسالة من صحفي بالجارديان الإنجليزية بأنه قد قرأ منشورها وأطلع على الصور بواسطة الهاشتاجز، ويدعوها للمشاركة بقصتها العجيبة في تغطية الصحيفة للذكرى الثلاثين لحادثة تشيرنوبل:

?Chernobyl disaster 30 years on: what do you remember

وألحقها برابط المشاركة:

<https://www.theguardian.com/environment/2016/apr/20/>

chernobyl-disaster-30-years-on-what-do-you-remember

لتبتسم كلارا وتجيبه:

- نعم؛ بكل سرور.

تمت



تنظر كلارا كعادة كل يوم جهة اليمين إلى عجلة الملاهي الدوّارة بكبالها الصفراء، والتي تُقر بها في طريقها إلى المنزل، فتُحبّ تنورة والحذاء وتشير بإصبعها إلى العجلة، فتُجيبها مارجاريتا بأن الأمر قد بات وشيكًا، ولم يبق سوى خمسة أيام على افتتاح حديقة الملاهي بالمدينة بشكل رسمي، وتعدّها بأنها ستُحضر الافتتاح يوم عيد العمال الذي بدأت زينتته تملأ شوارع المدينة وتكسوها باللون الأحمر. تصعد مارجاريتا إلى شقتها في الطابق الثامن بالمبنى 7أ الكائن بشارع سيورتيغليا، فتُخرج المفتاح من جيبتها وتُفتح الباب بهدوء شديد، وتهمس في أذن ابنتها أن تدخل بهدوء هي الأخرى وأن لا تُحدّث ضوضاء لكيلا تُزعج والدها التائم في الغرفة. ثم تتوجّه إلى المطبخ لتُعد وجبة العولوتسي؛ ملفوف الكرنب الذي يحبه كثيرًا زوجها اليكسبي، الشاب اللاتاليني الذي يعمل في وحدة الإطفاء التابعة لمنطقة تشيرنوبل. تُلخع كلارا حذاءها وتطبخ بقدميها كل فردة في اتجاهه، ثم تنزل بجسدها الضليل أسفل الأريكة لتُحضر دميتها صوفيا، لتُجلسها إلى جوارها على الأريكة وتُاكل باستمتاع ثمرات الفراولة التي غسّلتها لها أمها بعناية.

كُتبت
КОТОВНА



عمرو كامل عمر

رواية

1986



ليلة تبدلت فيها الحياة